معروف الرصافي

شاعر الحرية والعروبة

تأليف: الدكتور الحسيني عبد المجيد هاشم
تقديم: صالح جودت

مذاهب
وشخصيات

معروف الرصافي

شاعر الحرية والعروبة

تأليف الدكتور الحسيني عبد المجيد هاشم

تقديم صالح جودت

احريتى انى اتخـــذتك قبلة
أوجـه وجهى كل يوم لهـــا عشرا
اذا كنت فى قفر تخذتك مؤنســا
وان كنت فى ليـل جعلتك لى بـدرا

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الدار القومية للطباعة والنشر

مقدمة بقلم صالح جودت

عاش الرصافى والزهاوى والكاظمى فى عصر واحد بالعراق ، هو العصر الذى عاش فيه حافظ ابراهيم وأحمد الكاشف وأحمد محرم وأحمد نسيم فى مصر ، وقد تساوت أقدارهم عند الناس برغم اختلاف مدارسهم ، لأن « أحمد شوقى » كان يقف على قمة ذلك العصر ، فأسدلت عظمته على وجودهم غلالة حملت الناس على النظر العابر اليهم ، بغير دراسة ولا تمحيص، متفرغين بأسماعهم وأبصارهم الى ذلك العملاق أمير الشعراء وحده ٠

وهكذا ذهب هؤلاء الأعلام جميعا دون أن ينالوا نصيبهم من الدنيا ودون أن يظفر شعرهم بما هو جديد به من التكريم والتخليد ٠

من أجل هذا ، كان خليقا بنا أن نعود اليوم الى رفع تلك الغلالة عنهم وتناول شعرهم بالدراسة والبحث والكشف عن سيرهم وأقدارهم وآثارهم فى أحاديث تبقى للتاريخ ٠

وهذا الكتاب واحد من كتب الوفاء الواجب لذكرى علم من هؤلاء الأعلام ، هو شاعر العراق الجهير ، معروف الرصافى الذى لم يعرفه الناس ولا سيما فى مصر الا فى خلال مختارات له فى الكتب المدرسية ، لا تكفى القاء الضوء الصادق على حقيقته ٠

رأيت الرصافى مرة واحدة فى حياتى ٠

وكنت أسمع الكثير عنه ،وأستمع الى الكثير فى شعره ، من أديب عراقى كبير عاش ردحـــا من الزمن بالقاهرة وعاصرنا فى عصر « أبولو » هو الأستاذ مصطفى جواد ٠

ثم جاء الرصافى الى القاهرة وأقام له المرحوم الأســتاذ محمود بســيونى الذى كان رئيسا لمجلس الشيوخ فى ذلك العهد ، حفلة استقبال دعا اليها أدباء ذلك الجيل ومتأدبيه ٠

وكنت يومئذ لا أزال طالبا بالجامعة ، ولكننى كنت عضوا بمجلس ادارة جمعيـــة أبولو ، التى أسسهـــا أمير الشعراء ، وقد دعيت الى الحفلة بهـــذا الوصف ، وجلست الى جانب الرصافى ، أستمع الى حديثـــه الطلى ٠

وبرغم اننا كنا نعيش عهدئذ فى جحيم الملكية فى ذروة طاغوت فؤاد ــ كان العراق يعانى الحكم ذاته ، فان الرصافى لم يخش يومئذ أن يتلو علينا بعض قصائده فى مهاجمة التيجان ولعنة أصحاب التيجان ٠

قفزت الى ذاكرتى هذه القصة ، وأنا أراجع هـــذا الكتاب الذى شاء صاحبه أن يلقب الرصافى بشـــاعر الحرية والعروبة ، وهى تسمية خليقة به ٠

وأود ــ بادىء ذى بدء ــ أن أنبه القارىء الى أنه لا يجوز أن يأخذ هذا الكتاب على أنه دراسة علميـــة لشعر الرصافى ، أو أنه تاريخ دقيق لحياته ، فما أحسب أن المؤلف قد قصد الى شىء من هذا أو ذاك ، وانمـــا قصد أن ينتقط من حياة الرصافى زاوية واحدة هى تعلقه بالعروبة والحرية وأن يعرض على القارىء بعد ذلك ما قال الرصافى فى العروبة والحرية عرضا خلوا من النقد العلمى مكتفيا بالقاء الضوء على مراحل فى حياة الشاعر ، تسجل تقديسه للحرية ودعوته الى مكافحة الاســـتعمار التركى والفرنسى والانجليزى ، وتنديده بأعوان الاســـتعمار واهابته بالأمة العربيـــة أن تتحد

وتتضافر لتكون كما قال تعالى : « خير أمة أخرجت للناس » .

وشواهد هذه الحقيقة ماثلة أمامنا فى صفحات هذا الكتاب :

فالرصافى يهجر العراق الى الآستانة حينما يحس أن هناك صحيفة تندد بالظلم ، وتدعوه الى الاسهام فى هذا التنديد .

والرصافى وهو نائب بمجلس النواب العراقى يقف منافحا عن الحرية لاعنا المعاهدة التى تربط مصير العراق ببريطانيا سنة ١٩٣٠ ، كما صنعت بنا هنا معاهدة سنة ١٩٣٦ .

والرصافى هو صاحب ذلك النشيد الملتهب نشيد الكشافة الذى نشأ أبناء الجيل الصاعد فى زمانه على روح الثورة :

نحن خواضو غمار الموت كشافو المحن
مالنا غير اكتساء العز أو لبس الكفن
نبذل الأرواح نفديها لاحياء الوطن
هل سوى الأرواح للأوطان فى الدنيا ثمن

وآية الخلود للشاعر أن تحس أن شعره لا يزال يعيش فى كل عصر ، ويساير أحداثه .

وها نحن أولاء نعيش فى عصر الدعوة الكبرى التى يتزعمها بطل العروبة الثائر جمال عبد الناصر .

ونقرأ شعر الرصافى بعد وفاته بسنوات ، فنحس أنه لا يزال يعيش فى عصرنا هذا — عصر جمال عبد الناصر ، ويستجيب لدعوته ، ويدعو الى محاربة الاستعمار والاستغلال والاقطاع والأحزاب ، وكأنه ما مات ، وكأنه لا يزال على منبره العالى يتردد صوته فى فجاج الأمة العربية .

هذا هو الخلود !

صالح جودت

- ١ -

العراق

العراق بلد عربى صدح فيه الشعراء من قديم الأزمان وموطن من مواطن المجد الأدبى فى زمن الجاهلية ، فى « الحيرة » أيام « النعمان بن المنذر » وشاعره النابغة ما زال يمدنا بروافده الصافية فى الشعر العربى.

وفى عصر الاسلام الزاهر ازدهرت مدينة بغداد بالأدب والفن ، فهو « البلد » حامل مشعل الثقافة العربية قبل احتلال (١) المغول فى منتصف القرن التاسع . وبعد الاحتلال هاجر أهلوه بثقافتهم من بغداد لمصر ، فوجدوا قطرا شقيقا كريما يتقبل اخوانه فى العروبة بالترحاب .

وبعد عهد المغول ظل العراق محتلا للفارسـيين ، ثم تداولوه مع الأتراك ، وكلها عهود متشابهة فى الاستهانه باللغة العربية ، ولكن حرص القوم على مقوماتهم ولغتهم جعلهم يناضلون ويكافحون ، وشجع على حفظ اللغة الخلافات المذهبية بين الشيعة والسنية ، فحرص كل من الفريقين على مناظرة الآخر ونقاشه وسرد ما لنفسه من مفاخر باللغة العربية ، فعاشت اللغة تقاوم الاحتلال وتصرعه ، وتسخر من جبروته فى البصرة والموصل وبغداد والرصافة وكربلاء ، واقبلوا فى جدال عنيف على المفـاضلة بين الهاشميين والامويين ، وكأنهم فى معزل عن السياسة ، ينعمون فى دنيـا الفكر والعقل والوجدان .

فاللغة العربية فى العراق مدينة للخلافات المذهبية ، كل يؤيد دعواه، فى أسلوب منمق جزل الألفـاظ مؤيد بالروايات الكثيرة عن أنصـاره وما ورد فى محاسبتهم فى قوالب هى غاية فى الفصاحة والبلاغة .

وأما الأدب بمعناه الحقيقى فكان قد انطوى على عهد الظلمات . فلم يكن الا مطارحات شعرية قليلة ، أو مراسلات نثرية .

---

(١) انظر (ملامح المجتمع العراقى : لزكى مبارك) .

ولكن ما لبث الأدب أن استيقظ من جديد ، وتدفقت ينابيعه ، وتغنى بالمطامح السياسية والقومية عندما وجد العراق اخوانا له يدافعون عن حريته فى ثورة عنيفة «على الدولة التركية» من رجال العروبة الأشقاء :مصر وسورية والحجاز واليمن ولبنان ، وتكونت من بينهم جماعات أدبية لتفصح عن آلامها وتطالب بحقوقها المسلوبة فى وحدة عربية اسلامية متضامنة . وقد كانت اللغة العربية لسان صدق وأداة تعبير عن تلك الثورة ، فظهرت فى ميدان الأدب ورياضه قصائد ومؤلفات ، وانطلقت الألسنة بأدب جديد: هو الأدب السياسى ، وسنجد دور شاعرنا فى هذا المضمار متقلدا وسام الصدارة .

ولما تقلص ظل الاحتلال التركى عن العراق حل محله كابوس أثقل ظلا : هو الاحتلال الانجليزى .

ولكن العربية المنبعثة من صميم شعبه الأبى ظلت تجاهد وتجد من يرعاها ويباركها حتى ازدهر الأدب فى سماء العراق ، وكان لشاعرنا النصيب الأوفر فى هذه النهضة ، وعادت الحياة الأدبية من جديد الى مهد الآداب تطل من شرفات الزمن ، وتتصل بمجالس النعمان بن المنذر فى الحيرة يغنيه النابغة الذبيانى بين القيان والكئوس المترعة ، وأيام الرشيد فى بغداد يطربه أبو نواسه .

- ٢ -

البيئة الطبيعية فى العراق

أما طبيعة العراق فهى ساحرة تمد العقول بالوحى والالهام ، عرف فيها نهر الرافدين بحفيف أمواجه وانعكاس أشعة الشمس الذهبية على مياهه الفضية ، وهو قبلة الصباح والغروب وترعرع الحشائش السندسية والأزاهر اليانعة المترعة بسلاف الرافدين والرياض والخمائل والبلابل وصوتها الشجى ، ومناجاتها للورود والرياحين ، وفى كل هذا مادة وافرة تغذى العقول النيرة المستعدة ، فتفجر منها الأنغام الخالدة ترددها الأجيال معجبة بصفائها وجمالها •

ولنقف مع شاعرنا عند منظر طبيعى : هو منظر الغروب فى الأعظمية لنرى حسن الطبيعة معه :

نزلت تجر الى الغروب ذيولا	صفراء تشبه عاشقا متبولا
تهتز بين يد المغيب كأنها	صب (١) تململ فى الفراش عليلا
غربت فأبقت كالشواظ عقيبها	شفقا بحاشية السماء طويلا
شفق كأن الشمس قد رفعت به	ردنا (٢) بذوب ضيائها مبلولا
كالخود (٣) ظلت يوم ودع الفها	ترنو وترفع خلفه المنديلا
لم أنس قرب (الأعظمية) موقفى	والشمس دانية تريد أفولا
وعن اليمين أرى مروج مزارع	وعن الشمال حدائقا ونخيلا
ووراء ذاك الزرع راعى ثلة (٤)	رجعت تؤم من المراح قفولا
فاقرأ كتاب الكون تلق بمتنه	آيات ربك فصلت تفصيلا

والصفة السائدة التى تشرق علينا من أشعار الرصافى ، وتهيب بنا لنقف أمامه معجبين ومقدرين — هى الحرية •

---

(١) الصب : العاشق •
(٢) الردن : الكم •
(٣) الخود : الفتاة الحسناء •
(٤) ثلة : قطيع من الغنم •

الحرية

والحرية معشوقة النفوس الكبيرة والافكار الناضجة التى تعرف مقدار ما للانسانية من سمو واحترام ، وتشعر بعظمة شخصيتها .

هذه النفوس الكبيرة الحرة ترى فى قيود الأسر وظلاله التى اعتاد الاستعمار أن ينصب شباكها بمختلف الأساليب للشعوب الآمنة المطمئنة. فيبعث فى نفوسنا الذعر والفزع ذلا وعارا تعافه نفوسهم وتشمئز منه ولا يهدأ لها عيش ما بقيت هذه الأشباح السود ، ولكنها لا تقف مكتوفة أمام هذا اللون الجائر المقوت ، بل تعمل وتكافح وتشن عليه حربا لا هوادة فيها ، فلا تبرح تهدم فى كيانه بمعاولها القوية حتى ينهار سريعا ، لأنه بناء أجوف ، لم يؤسس الا على أمواج الظلم والطغيان الواهية .

وتاريخ الثورات ناطق فى كل بلد حر بأن الثورات التحريرية مبعثها حرية الأقلام وتلبية لندائها ، ورب ثورة تحريرية قامت وعصفت لأن كاتبا أو شاعرا أيقظ الشعب وصور له آلامه ، فشعر بها وكشف له عن قسمات الحرية ووجهها الأخاذ ، ورسم له الطريق .

والحرية تمتاز بالوفاء : تهب الخلود لعشاقها الذين جاهدوا تحت رايتها ، وهى التى أضفت على شاعرنا الرصافى الخلود .

وسيتراءى لنا بوضوح أن الرصافى هو شاعر الحرية من دراستنا لمواقفه وجهوده التى بذلها فى سبيل الحرية ، وسيظهر ذلك جليا فى قصائده فى الاستعمار التركى ، ومثابرته فى ايقاظ الشعب ومحاربة الاستعمار الانجليزى وتصوير سياسته البغيضة ومعاهداته وأحلافه ، وآرائه فى الملكية والاقطاع والأحزاب وحكومة الانتداب ، ودفاعه عن الشرق فى كل مناسبة .

ونراه يحلق فى سماء الحرية متنقلا بين ربوعها من البلدان العربية الاسلامية . متخذا منها كلها وطنا كبيرا يتواءم مع أفقه الكبير ، مدافعا عن

حريتها ، ناصرا لقضاياها الوطنية ، داعيا لوحدتها ، فشعره سجل حافل بالأحداث التاريخية الوطنية فى تلك الفترة المملوءة بغدر المستعمرين على البلاد العربية ، نجده فاضحا نيات الأعداء ، منددا بخيانتهم وغدرهم فى كل بلد عربى ٠

ويتحدث عن بلاد العروبة كجندى بار بها ، خبير بمعالمها ورجالها ، فنجده فى مصر وفى دمشق وفى تونس وفى طرابلس وفى بيروت وفى العراق متخذا من هذه البلاد الشقيقة وطنا له ، عاقدا أواصر الصداقة مع رجاله مسجلا أحداثه ، فهو بحق شاعر العرب المجيد ، كما وصف نفسه ، لهذا ، سنجده فى دراستنا لشعره وحياته يربطنا بتاريخ الأمم وأحداثها ونضالها فى سبيل الحرية ٠

- ٤ -

الرصافى فى سطور

شاء الله للرصافة التى بشرق دجلة فى بغداد ـ أن تسمو مكانتها بشاعر حر يحمل اسمها وضاء يرف فى كل مكان بنور الحرية ، فولد معروف بها سنة ١٨٧٣ م الموافقة سـنة ١٢٩٢ هـ ، وكان والده عبـد الغنى (أفندى) جنديا متدينا كثير الصلاة وقراءة القرآن ، كثير الأسفار والتغيب عن المنزل .

أما أمه ، فهى فاطمة بنت جاسم ، عربية من أسرة متوسطة الحال . والرصافى يفتخر بأدبه . ويشكو حرمانه :

أنا ابن (دجلة) (معروف) بها أدبى   وان يك الماء منهـا ليس يروينى

وما تحدث عن نسبه قط ، وهو جدير بأن يفتخر به المفتخرون ، لا يريد أن يفتخر بنسب ليس من ثمره كما يقول ، وعمل المرء خير نسب له ، وكم من أب قد علا بابن له شرفا ، ولا يهمنا فى قليل أو كثير اختلاف الباحثين فى والده : أعربى هو أم كردى .

ويعجبنى فى معرض مشكلة النسب حديث سيدنا (محمد) صلى الله عليه وسلم :

(أيهـا الناس ، ان الرب واحد ، والأب واحد ، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم ، وانما هى اللسان ، فمن تكلم بالعربية فهو عربى)

واذ سئل الرصافى عن أسرته ، كانت اجابته الشافية :

قالوا : ابن من أنت يا هـذا ؟ فقلت لهم :

أبى امرؤ جـده الأعـلى أبو البشر

قالوا : فهل نال مجـدا ؟ قلت : وا عجبى

أتسـألونى مجـدا ليس من ثمرى !

وكان الرصافى لا يرى والده الا قليلا ، فاتجهت عاطفته وتركزت نحو أمه القائمة برعايته ، والمرجع له فى كل شئونه · يقول عنها :

كانت مرجعى فى كل شىء ، حتى بعد مجـــاوزتى العقد الأول من حياتى ، لأنى كنت لا أرى أبى الا قليلا ·

أرسلته أمه الى (الكتاب) ليتعلم القراءة والكتابة ويحفظ القرآن ، وختم القرآن ، ودخل المدرسة العسكرية ، ولكنه لم يكمل بها الدراسة ، ولم ترقه دروسها التركية ونظامها القاسى · والرصافى الذى خلقت الحرية فى طبعه لا يطيق هذه القسوة ، ففر الى الدراسة الحرة ، وتتلمذ على استاذه العالم الاسلامى الكبير السيد محمود شـــكرى الألوسى مدة اثنتى عشرة سنة ، كما تتلمذ على غيره من علماء العراق ، مثل الشيخ قاسم القيسى ، والشيخ عباس القصاب ، وعكف على حفظ شعر الشـــواهد وكتب الأدب ودواوين الشعراء ولا سيما ديوان أبى العلاء المعرى وأبى الطيب المتنبى ·

وكان يقاسى آلام الفقر أيام طلب العلم ، وهو العزيز النفس ، فاضطر لأن يبحث عن مورد يدر عليه الرزق ، فاشتغل بالتدريس ·

ولما أعلن الدستور العثمانى سنة ١٩٠٨ م سافر الى الآستانة بدعوة من صاحب جريدة « اقدام » التركية « أحمد جودت » ليشتغل محررا فى الجريدة ، وانتهزها الرصـــافى لتكون فرصـــة للتعبير عن آرائه وتوجيه الصحافة لمصلحة العدالة · وما ان وصل الى الآستانة حتى رأى الرجل قد عدل عن رأيه ، فعاد الى العراق · وفى هذه الرحلة نجد طيف أمه يلازمه ، فيحن اليها فى طريقه الى تركيا ، وهو فى دمشق ، وقد ثمل من السرور:

من كان يأرق بالهمـــوم فقـــد أرقت من السرور
وحسبت نفسى فى الجنـــان بغير ولدان وحـــور

ويذكر العراق وأمه فيتحرق شوقا اليها وحزنا لفراقها :

وطفقت أذكـر العـــرا ق فعـــاد صـــفوى ذاكدور
وذكـرت من تبـــكى هنـــا ك على بالدمع الغـــزير
يـــا أم لا تخشى فان الله يا أمى مجـــيرى
ودعى البكـــاء فان قلـــبى من بكائك فى ســـعير
أعلمت انى فى دمشـــق أجر أذيـــال السرور
بين الغطـــارفة (١) الذيـــن تخافهم غـــير الدهـــور

(١) جمع غطريف وهو السيد العظيم ·

من كل وضـــاح الجبيــ ن أغـر كالبـدر المنـير
حر الشـمائل والفضا ئل والظـواهر والضـمير

وبعد عودته الى العراق لم يمكث فيها الا بضعة شهور ، ثم دعى الى الآستانة ليعمل فى جريدة (الرشاد) وليتولى تدريس اللغة العربية فى المدرسة الملكية الشاهانية ، ثم درس الخطابة فى مدرسة الواعظين هناك ، ثم انتخب وهو فى الآستانة نائبا عن لواء (١) من العراق فى المجلس النيابى العثمانى ، وذهب بعد انتهاء الحرب الى دمشق الشام ، ومن هناك دعى الى (القدس) لتدريس الأدب العربى بدار المعلمين ، واستدعته حكومة العراق سنة ١٩٢١ ، واشتغل فى وزارة المعـارف العراقية فى وظيفة نائب رئيس لجنة الترجمة والتأليف ، ومنهـا نقل الى تفتيش اللغة العربية ، ثم سافر الى الآستانة • وبقى بعيدا عن العراق سـبعة أشهر ، ثم عاد الى العراق ، وأصدر جريدة (الامل) السياسية بالاشتراك مع ابراهيم حلمى العمر فى عهد صديقه رئيس الوزراء يومئذ عبد المحسن السعدون • صدر أول عدد منها يوم الاثنين ٢٠ من صفر سـنة ١٣٤٢ هـ • الموافق اليوم الأول من تشرين سنة ١٩٢٣ ، وأصدر منها ٦٨ عددا ، واحتجبت الجريدة لمقالاته السياسية المعارضة للاستسلام والركود ، ثم عين فى سنة ١٩٢٤ مفتشا للغة العربيـة ، وفى سـنة ١٩٢٧ اختير لتدريس الأدب العربى بدار المعلمين ، وكان غير مستريح لهذا النقل ، فاستقال سنة ١٩٢٨ ، ولم يعد الى أية وظيفة •

ولقد حاول أن يهاجر الى الآسـتانة مرة أخرى الا أن صـديقه عبد المحسن السعدون حال دون ارادته ، وانتخب الرصافى خمس مرات نائبا : فى الأولى عن لواء العمال ، وفى الثانية عن لواء بغداد ، وثلاث مرات عن لواء الديلم •

وفى سنة ١٩٣٠ كان نائبا فى المجلس النيابى بالعراق الذى صدق على المعاهدة العراقية الانجليزية ، وعارض أشد المعارضة فى قبولها •

والحق انه فى كل هذه المراحل كان شعلة متحررة ، اذ كان ينادى فى كل مناسبة بتحرير الشرق • وتوفى فى مارس سنة ١٩٤٥ •

هذا عرض سريع لحياة معروف الرصافى نستشف من عاطفته وروحه وأدبه ووطنيته فى مرآة شعره الصافية •

(١) مقاطعة من مقاطعات العراق تشبه المحافظة •

الاستعمار التركي في العراق

كان العهد العثمانى مستبدا فى حكمه ، وعامل هدم فى بناء اللغة العربية الشامخ ، وقد فرض دراسة العلوم فى المدارس بلغته التركية ، شأن كل مستعمر يريد أن يقضى علىمقومات البلاد التى يستنزف دماءها، ويفرض سلطانه عليها ، فيحفر بأسلحته الظالمة مجالا للغته بالرغم عن الشعب ، وهذا هو منتهى القسوة : أن تتحكم فى مشاعر أمة ورغباتها وعواطفها ، حتى فى أساليب بيانها وآدابها المبنية على ذوقها واحساسها، انه الحيف والطغيان ·

ويجمل بنا أن نستمع الى أحد رجال (١) العراق الذين تجرعوا هذا النوع من التحدى ·

وكنت فى العهد العثمانى تلميذا فى مدرسة ابتدائية ، أتلقى فيها دروسى باللغة التركية غير لغة بيتى الذى ربيت فيه ، والبيئة التى نشأت فيها ، والكتاب الذى تعلمت فيه قراءة القرآن ، فكنت غريبا عن هذه اللغة التى فرض على أن أتلقى بها مبادىء علوم شتى ، أجد صعوبة فى فهمها ، وعسرا فى معرفتها ، فلم أر بدا من أن أحفظ الدروس حفظا حرفيا دون أن أفهم لها معنى ، أو أعى لها مقصدا ، وكان هذا مما يرضى معلمى يومئذ وأذكر أن المدرسة حظرت علينا أن نتكلم بغير اللغة التركية ، وفرضت على من يتكلم بغيرها غرامة مالية وان كانت زهيدة ، وكنا بحكم وضعنا ذاك ننشد الأناشيد التركية صباحا قبل الشروع فى الدروس ومساء قبل مغادرتنا المدرسة ، وكنت أتلقف هذه الأناشيد من أفواه (زملائى) التلاميذ الذين سبقونى فى الانتساب الى المدرسة ، حين ينشدونها الا ما جد منها فنتلقفه من المعلم ، ولست أشك فى أننى حرفت وصحفت كثيرا من ألفاظها وتعابيرها ، فقد كنت أرددها كما

---

(١) هو الأستاذ مصطفى على : صديق الرصافى ، وهو الآن بالتدوين فى العراق ·

تسمعها أذنى التى ما اعتادت أن تصغى كثيرا لهذه اللغة من قبل ، ولهذا لم أكن أفهم هذه الأناشيد ، لأنها أناشيد أجنبية عنى ، بلغتها ولحونها ومعانيها ، لا أفقه لها مغزى ، ولا أدرك لها مرادا ، أناشيد هذا شأنها كيف يكون وقعها فى النفس ؟

وذات يوم لقنا نشيدا عربيا وطنيا تولى المعلم شرح معانيه، فأقبلت على حفظه بلهفة ، وعلى انشاده برغبة ، فهو نشيد وطنى حماسى ، بلغتى التى أحسن فهم ما يقال بها وأشعر به .

أما النشيد المذكور ، فمنه :

نحن خواضو غمار الموت ، كشافو المحن .

ما لنا غير اكتساء العز أو لبس الكفن .

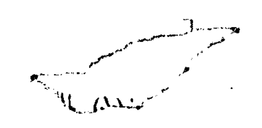
نبذل الأرواح نفديها لاحيــاء الوطن .

هل سوى الأرواح للأوطان فى الدنيا ثمن ؟

انه عذب الألفاظ ، سائغ المعنى ، فهمته وشعرت به لأنه بلغتى ، ولأنه نشيد يثير الحماسة الوطنيــة ، ويدعو الى محبة الأوطان والتضحية فى سبيلها ، فيهز العواطف ويوقظ المشاعر .

ذاع هـذا النشيد وانتشر ، فـكان يطبع على أغلفة كثير من الكتب المدرسية ، منسوبا الى ناظمــه ، فما كنت أنشــده أو أقرؤه مطبوعا الا ازددت رغبة فى رؤية الشاعر الذى نظمه .

أتدرى أيها القارىء من صاحب هذا النشيد الحماسى الذى تهب منه حرارة الوطنية الصاهرة لقيود الاستعباد بأنواعها ، ثقافية وسياسية ؟ انه شــاعرنا (الرصــافى) ، فانظر كيــف كانت جهوده فى نشر الروح الوطنية فى شرايين العراق . ولعلك أحسست بأثر نشيده فى النفوس . وكيف اســتقبل فى حفــاوة وابتهــاج ؟ انه شــواظ من نار يصب على المستعمرين ، وسيل قوى يذيب أمامه الاستبداد فى وقت تفرد فيه بهذا القول الحماسى .



كفاح الرصافي في سبيل الحرية في العصر التركي

هـم الأشرار باسـم الدين قاموا   وعاشـوا في المـدائن مفسدينـا

ظل الرصافي يستنهض همة أمتـه في العراق ، ويحرك فيها روح الوطنيـة والتطور ، ويبين لمواطنيه أن السبب الرئيسي في تأخر البـلاد اقتصاديا وثقافيا هو ربطها بعجلة الاسـتعمار السياسي ، ويعيب على العراق الاستسلام لنير الاستعمار التركي وفساده في البلاد طولا وعرضا، فينادي قومه ويناشدهم أن يستيقظوا ويعملوا حتى ينالوا العيش الكريم ويسائلهم : متى يتأتى للقلوب انتباهها ، وينكشف هذا الغطاء الثقيل، ويزول هذا الجمود المميت؟ أليس فيكم أسد يحمي عرينه من هذه الذئاب؟ ويبرأ شـاعرنا الى الأحرار من شر أمة أسـيرة لدى حـكام ثقـال القيود والأغلال :

أما آن أن يغشى البـلاد سـعودها
ويذهب عن هذي النيام هجودها ؟

متى يتـأتى في القـلوب انتباههـا
فينجاب عنهـا رينهـا وجمودها

أما أسد يحمي البـلاد غضنفر
فقد عاث فيها بالمظالم سيدها ؟ (١)

برئت الى الأحـرار من شر أمـة
أسـيرة حـكام ثقـال قيودها

ويعجب لقوم يخضعون لدولة، عميدها يسوسهم بالموبقات، وأغرب من هذا هيبتهم لهـذه الدولة وجنودها وأموالها مأخوذة منهم ، فهي عبء عليهم وتخيفهم :

---

(١) السيد : الذئب .

عجبت لقوم يخضعون لدولة ... يس[illegible]ات عميدها !
وأعجب من ذا أنهم يرهبونها ... وأموالها منهم ومنهم جنودها !
اذا وليت أمر العباد طغاتها ... وساد على القوم السراة مسودها
وأصبح حر النفس فى كل وجهة ... يرد مهانا عن سبيل يريدها
فما أنت الا – أيها الموت – نعمة ... يعز على أهل الحفاظ جحودها

ويصور جمال الحرية ووسامتها وجبينها الوضاء ، وقد حظى بها قوم وآخرون تركتهم خلفها ، ولولا أملهم فى وصلها لتمنوا الموت :

ألا انما حرية العيش غادة ... منى كل نفس وصلها ووفودها
يضىء دجنات الحياة جبينها ... وتبدو المعانى حيث أتلع(١) جيدها
لقد واصلت قوما وخلت وراءها ... أناسا تمنى الموت لولا وعودها
وقد مرضت أرواحنا فى انتظارها ... فما ضرها – والهفتا – لو تعودها !

وينكر الرصافى على بنى وطنه صبرهم على هذه النوب الكثيرة ، فيخاطبهم بقوله :

بنى وطنى مالى أراكم صبرتمو ... على نوب أعيا الحصاة عديدها
قعدتم عن السعى المؤدى الى العلا ... على حين يزرى بالرجال قعودها
ولم تأخذوا للأمر يوما عتاده (٢) ... فجاءت أمور ساء فيكم عتيدها(٣)

ويشرح لهم سبب تأخرهم وخضوعهم ، بأنه الداء الوبيل فنارالحمية لم تتقد لفقد عنصر الاتحاد ، كما أن اشتعال النار لا يكون الا باتحاد العنصرين : الأكسجين والكربون ، فهو السبب فى اشعال الثورات للاصلاح ، ومن المؤلم أنكم تجتمعون وراء الجاهل اذا مشى نحو الشبهات وهنا يطالعنا الشاعر بتشبيه عربى بدوى ، اذ يشبههم بالمعزى ، تشسب فوق الجبال ، وراء الجدى ، لا تعرف الخير من الشر ، ثم يقول لهم : ماقطيع الغنم ، وقد أهملته الرعاة فى مكان تكثر فيه الأسود الجائعة ، فباتت لا راعى لها بين الوحوش الضاريات بأضيع منكم ، اذ لا صاحب شهامة يذب الرزايا ويدفعها عن الوطن :

وما اتقدت نار الحمية منكمو ... لفقد اتحاد ، فاستطال خمودها

---

(١) أتلع : مد .

(٢) عتاده : عدته .

(٣) عتيدها : حاضرها .

ولولا اتحاد العنصرين(١) لما غدا ... من النار يذكو لوعلمتم وقودها
اذا جاهل منكم مشى نحو سبة ... مشى جمعكم من غير قصد يريدها
كأنكمو المعزى تهاوين عندما ... نزا(٢)فنزت فوق الجبال عتودها(٣)
وما ثلة (٤) قد أهملتها رعاتها ... بمأسدة(٥) جاءت لعمرى أسودها
فباتت ولا راع يحامى مراحها ... فرائس بين الضاريات تبيدها
بأضيع منكم حيث لاذو شهامة ... يذب الرزايا عنكمو ويذودها

ويعيب عليهم طمعهم فى بلوغ المنى بدون بذل وفداء وجهد وكفاح، ويضرب لهم الأمثال : فلمعان البرق ناشىء عن حركة الرعد بين الغيوم ، وأدخنة النيران لولا اشتعالها وسبقها ماتصاعدت النيران مندلعة فى هذا الفضاء ، فلا بد لكل خير من جهاد وعمل يسبقه ويمهد لاستقباله • ومن يطلب الحسناء لم يغله المهر ، ومهر المعالى بيض المساعى :

أتطمع هذى الناس أن تبلغ المنى ... ولم تور فى يوم الصدام وقودها
فهل لمعت فى الجو شعلة بارق وما ... ارتجست (٦) بين الغيوم وعودها
وأدخنة النيران لولا اشتعالها ... لما تم فى هذا الفضاء صعودها
ومن رام فى سوق المعالى تجارة ... فليس سوى بيض المساعى نقودها

هكذا كان الرصافى يدعو للحرية فى حرارة قوية تتدفق حماسة من بحور شعره الزاخرة بالبلاغة يريد التخلص من التأخر الذى أحدثه العهد العثمانى ، ولم يكتف بهذه الصيحات القوية فى وطنه العراق ، بل انه أخذ يعمل ويكافح فى كل ميدان •

---

(١) العنصران : المشعلان للنار : هما : الأكسجين والكربون •
(٢) نزا : وثب •
(٣) العتود : الجدى القوى •
(٤) الثلة بالفتح : الكثير من الغنم ـ والثلة : الجماعة من الناس •
(٥) المأسدة : المكان الذى تكثر فيه الأسود •
(٦) ارتجست ـ رعدت وتحركت •

الرصافي مع جيش التحرير في سلانيك

سافر الى الاستانة ، واتصل بمن يومض فى نفوسهم بريق أمل من الحرية راجيا أن تنـال الدول العربية الاسلامية خيرا ، أو تقفز خطوة فى طريق الحرية ، وكان على علاقة وثيقة بأحرار الانقلاب الدستورى ، وأخذ ينافح جهارا عن مبـادىء الحرية والمسـاواة والعـدالة ، ينفخ فى الجيش الزاحف من (سلانيك) بقيادة (محمود شوكت) لقمع الحركة الرجعية بالآستانة فى ٣١ من مارس سـنة ١٩٠٨ موضحا أن زحفهم هـذا تلبية لأنين الوطن ، وأنهم يبكون حنانا عليه :

لقـد سـمعوا من الوطن الأنينـا ... فضجوا بالبـكاء له حنينا
شباب كالصـوارم فى مضـاء ... يرون وكالشموس منورينـا

ويرى أن (سلانيك) قضت دينا عن الوطن ، وقد اجتمعت فى هذه الحركة التحريرية الديانات المختلفة ، وهذا هو الاخاء الوطنى الواجب على أبناء الوطن ذوى النفوس الـكريمة ، فالموت خير من الاستكانة فى حيـاة مهينة :

سـلانيك الفتـاة حوت ثراء ... بهـم فقضـت عن الوطن الديونا
لقد جمعوا الجموع : فمن نصارى ... ومن هـود هنـاك ومسلمينا
تراهم فيـه متحـدين عـزما ... وما هم فيـه متحدين دينـا
هى الأوطـان تجعل من بنيهـا ... اخاء فى محبتها رصـينا
وان الموت خـير من حيـاة ... يظـل المرء منهـا مسـتكينا

ويأمر الثوار بلسان الشعب بألا تأخذهم شفقة فى هؤلاء الرجعيين الذين قد استبدوا وخانوا :

ولا تبقـوا الـذين قـد اسـتبدوا ... ورامـوا كيـدنا وتخـونونا
لقـد جعـلوا من الدسـتور شرا ... بدار الملك كى يسـتعبدونا

ولعلك تجد ألذع وصف للرجعيين وحكمهم بأنهم قوم شرار قاموا باسم الدين ليعيثوا فى الأوطان فسادا :

هم الأشرار ، باسم الدين ، قاموا . فعاثوا فى المواطن مفسدينا
وما احترموا من الدستور بندا وما أبقوا له صوتا رصينا
وما تركوا من الدستور (شورى) ولا أبقوا لنغمته طنينا

ويسافر شاعرنا يلازم الجيش من سلانيك الى الآستانة ، ليروى ما يشفي غليله ويحقق ما يرجوه :

هناك أقوم مرتجلا اليهم لأبصر ما أؤمل أن يكونا
أتينا دار (قسطنطين) صبحا وقد فتحت لهم فتحا مبينا
وظل الجيش جيش الله يشفى بحد سيوفه الداء الدفينا

ورد هذا الجيش الخائنين ، وحط فى قصر (يلدز) ، فانحط وهوى السلطان (عبد الحميد) الى درك الملوك الظالمين ، وأنزل عن سرير ملكه خلعا لا نديم معه ولا أنيس ، وسيق الى (سلانيك) محبوسا ذلك الملك المستبد ، وأصبح فى حالة موته خير له فيها من الحياة !

وهذا جزاء له على ما قدم من شرور ، ابان حكمه ، فلقد أذله الجيش:

ورد الخائنين الى جزاء أحلهموا المقابر والسجونا
وحطوا قصر (يلدز) عن سماء له فانحط أسفل سافلينا
هوى (عبد الحميد) به هويا الى درك الملوك الظالمينا
وأنزل عن سرير الملك خلعا وأفرد لا نديم ولا قرينا
فسيق الى (سلانيك) احتباسا له كى يستريح به مصونا
ولكن كيف راحة مستبد . غدا بديار أحرار سجينا ؟
وموت المرء خير من مقام له بين الذين سقوه هونا

وهذا جزاء له على نقضه لليمين وخيانته للدستور وطغيانه فى البلدان ، واذكاء الظلم فى أهلها ، وقتله للمئات منهم :

لقد نقض اليمين وخان فيها فذاق جزاء من نقض اليمينا
وقد كانت به البلدان تشقى شقاء من تجبره مهينا
فكم أذكى بها نيران ظلم وكم من أهلها قتل المئينا

- ٨ -

الرصافي يشرح سياسة الحكم التركي

نقف مع شاعرنا في قصيدته (وقفة عند يلدز) .

فقد أوضح فيها أساليب الحكم التركي في مدة ثلاثين عاما كما أوضح أن (عبد الحميد) ليس فردا ، ولكنه رمز للحكم التركي . وكم له من أمثال ! ثم يأمر شاعرنا الحاكمين بعده أن يتركوا الناس مطلقين أحرارا والا عاشوا مهددين وموثقين بالأوجال والمخاوف ، وكانت نهـايتهم نهاية كل حاكم جبار مثل (عبد الحميد) .

ويقف أمام القصر يسائله ، ويطلب منه الاجابة ، ويذكره بالايام الخالية أيام أن كانت كل البلاد له طولا وعرضا وكل العباد ، ولكنه لم يحسن القيادة ، بل كان منـــارا للدنايا ، ومصدرا للاذلال ! وكان جبا عميقا ، ابتلع النفوس والأموال ! فأين ذهب ياقصر هذا الصولجان ؟ وأين خاقانك الذى طغى وتكبر حتى ظن أنه قاســـــم الأرزاق ، بل باعث الآجال ؟ لقد أصبح ذلك المجد الزائف كخيال مر اثر خيال :

أيها القصر ، ايه بعض جــواب
لا تكن ســـاكتا على تســآلى
كنت كل البلاد فى الطول والعر
ض وكل العبـــاد فى الأعمال
كنت مأوى العـــلا منار الدنايا
مهبط العز مصـــــدر الاذلال .
كنت جبا ؟ وأى جب عميـــق
بالعا للنفوس والاموال .
قصر (عبد الحميد) أنت ولكن
أين ياقصر أين عرش الجـلال !
أين (خاقانك) الذى كان يدعى
قاسم الرزق باعث الآجـــال ؟

ويصور لنا هذه الأعوام الثلاثين التى أتى فيها القصر بكل محال ، فكانت هذه الأعوام رفعة للأدنى ، وحطة للأعلى ، ونقطة سـوداء فى جبين الأجيال باقية ، ينأى عنها العدل مخافة أن تدنس أذياله بمخازى القصر ومآسيه !

ويحس شـاعرنا باضطراب النفوس التى كان يغتالهـا القصر ، فيسمع أنينها وقد طارت هذه الأرواح البريئة الى السموات العلا ، وهى اليوم ألقت عليك أيها القصر من عليائها بشهب مشتعلة لاحراقك ، هذه الأرواح ذات المجد الخالد وان ضاعت أشلاؤها :

قد تخونتنـا ثلاثين عاما
جئت فيها لنا بكل محـال
تلك أعوام رقعـة للأدانى
تلك أعوام حطـة للأعالى
تلك فيما جرت به نقطة سو
داء ٠ تبقى بجبهة الأجيال
يثب العـدل طافرا كلما
مر عليهـا مشمر الأذيال
وكأنى أرى اضطراب نفوس
كنت تغتالها ٠ وأى اغتيال
وهى اليوم أحرقتك بشهب
قذفتها عليك ذات اشتعال
لم يضع مجدها وان هى أمست
ضائعات الأشلاء والأوصال

كيف ننسى تلك الخطوب اللواتى
لقحت (١) منك حربهـا عن حيـال (٢)
يوم كنـا وكان للجهـل حـكم
خـاذل كل عـالم مفضـال

آمـر مـن عتـوه كل أمر — يغرس البغض فى قلوب الرجال
ثم أصبحت نادما أيها القصـ — ـر تبالى بالقـوم أو لاتبـالى
لم تفدك الندامة اليوم شيئـا — قضى الأمر ٠ فاصطبر باحتمال

---

(١) لقحت الناقة : حملت ٠
(٢) حيال : عدم الحمل : المعنى : انك هيجت تلك الحروب ولقحتها بعد أن كانت ساكنة ٠

ويشيد الرصافى بأمته العربية بأنها لاتقبل الضيم ، وتأبى أن تستكين للولاة ، وهى أمة تاريخها مجيد · سادت الأنام ، وطابت عنصرا : أصولا وفروعا ، فاذا ما أصابها الجور ، وطغى الغشوم ـ قذفناه الى الدرك الأسفل ، فاذا تجبر المليك رددناه ذليلا يقاد فى الأصفاد والأغلال ، لأننا خلقنا من شعلة الجحيم ، لنذيق أولى الجور عذابا أليما ·

انما نحن أمة تدرأ الضيـ م وتأبى أن تستكين لوالي
أمة سادت الأنام وطابت عنصرا ، من أواخر وأوالى
فاذا ماغلا الغشوم نهضنا فقذفناه سافلا من أعال
واذا ما غلا المليك رددنا ه ذليلا ، يقاد فى الأغلال
نحن من شعلة الجحيم خلقنا لأولى الجور ، لا من الصلصال

ويوجه الرصافى نداء عاما الى جميع الملوك ، ليحذرهم عاقبة الجور والاستبداد ، وينبههم الى خاتمة هذه الرواية من الفساد والظلم وأن أبطالها دائما يداسون بأقدام ضحاياهم ·

وعبد الحميد ليس فردا ولكن له أشباها كثيرين ، وهو رمز للحكم التركى الجائر ·

ويأمر الرصافى الحكام أن يتركوا الناس أحرارا طلقاء والا كانت عاقبة أمرهم خسرا ، وحياتهم مهددة بالضياع أمام غضبة من غضبات الشعب ، الذى يريد حياة كريمة ، ويذكرهم بأنهم لم يجنوا من التجبر الا الاثم والوبال :

ياملوك الأنام هلا اعتبرتم بملوك تجور فى الأفعال !
ليس (عبد الحميد) فردا ، ولكن كم لعبد الحميد من أمثال !
فاتركوا الناس مطلقين والا عشتموا موثقين بالأوجال
هل جنيتم من التجبر الا كل اثم عليكمو ووبال ؟

فرحة الشاعر بإعلان الدستور

أعلن الدستور الذى حدد علاقة الدول الغربية بالحكم التركى سنة ١٩٠٨ ، يولية (تموز) ، وظن الرصافى أن اعلان الدستور سيكون الحد الفاصل بين عهدى الاستبداد والعدالة ، وظن أن الأتراك سيلزمون أنفسهم العمل به فانظر كيف كان سرور الرصافى بهذا الدستور ؟ انك تحس أن هذا التاريخ نقشه الرصافى على صدره متخيـــــلا أنه تاريخ الحرية والطمأنينة يستقبل الدستور بعواطف منطلقة وقلب شاقته الحرية ، فاندفع نحوها يعزف لها أنغامه الساحرة ٠

يكرم شاعرنا هذا التاريخ الذى أصـــبح تكريما وتعزيزا للشرق ، واضحى فيه الناس محررين من رق المستبد الطاغية ، الذى كان يتبـــع سياسة قائد التتار فى استهانته بدماء المسلمين وأموالهم ومصالحهم ، وسمى الشاعر هذا الشهر (تموز الحرية) وعنون به للقصيدة :

أكرم بتموز شـــهرا ، ان عاشره ... قد كان للشرق تكريمـا وتعزيزا
شهرا به الناس قد أضحت محررة ... من رق من كان يقفو أثر(جنكيزا)
وان (تموز) شهر قام فيه لنـا ... على البقـــاع لواء العز مركوزا
فى شهر (تموز) صادفنا لما وعدت ... بيض الصوارم بالدستور تنجيزا
هى المســـاواة عمتنا فما تركت ... فضـــلا لبعض على بعض وتمييزا
أمســـت لنا قسمة للملك عادلة ... حكما ، وكانت على علاتها ضيزى
كنا من الجور عميانا ، وليس لنا ... من قائدين ولم نمـــلك عكاكيزا
حتى نهضنا الى العلياء تقدمنـــا ... عصـــابة برزت فى المجد تبريزا
قمنا على الملك الجبـــار نصرعه ... بالسيف منصلتا، والرمح مهزوزا
لاعاش من لايخوض الموت مرتضيا ... بقاءه بعصى الذل ، موكوزا

ولا يبرح الرصافى يلتفت من فرحه دائما الى شهر (تموز) عنوان الحرية مباركا ومكرما وداعيا له بالسلامة والرعاية ، لأنه زين رايتنـــا

بالعدل . ومن فرط حبه لتموز الحرية يريد أن ينظم نجوم الأفق قصائد في تقريظه ، وينحت الأقـــلام من الماس ، ويمدها في مداد الذهب حفاوة لتموز الحرية :

يا شهر (تموز) لا راعتك رائعة	ولا لقيت من الأحـــداث ارزيزا
يا شهر (تموز) قد زينت رايتنا	بالعـــدل توشية فيها وتطريزا
من لي بأنجم هذا الأفق أنظمهـــا	قصائدا ، فيك مدحا ، أو أراجيزا
أو أنحت الماس أقلا ما معرضـــة	أمدها ذهبـــا في الطرز أبريزا ؟

من هذه الحرارة الملموسة ، يتبين لنا مقدار تعطش الرصافي للحرية حتى اذا لاحت له ، ترنم بمفاتنها وبهائها .

قد استأثروا بالحكم وارتزقوا به   وسدوا على من حولهم منبع الرزق

خلع (عبد الحميد) ونفى في (سلانيك) وأجلسوا أخاه (محمد رشاد) ، وأصبح الأمر والنهي بيد زعماء الانقلاب الاتحاديين ، ورجـــا العالم العربي على أيديهم الخير ، وأشاد الرصافي محتفيا بنصرهم راجيـــا الاصلاح والسعادة والحرية للشعوب التي أقفرت من الاصلاح والسعادة والحرية .

هذه هي الآمال التي عقدت عليهم ، فاذا بهذا الفريق من الغـــلاة يبيتون للعالم الاسلامي الشرور ، ويتآمرون على الحياة الروحانيـــة في شطط الجهالة العمياء ، وأسفرت سياستهم الخرقاء عن تفرق حتى بين الأتراك أنفسهم ، فكانوا أساتذة للفساد ، وقادة الاختلاف والتفرقة .

ونتيجة لهذه السياسة توالت الوزارات الفاشلة التي قامت تحت نفوذ الاتحاديين : وزارة كامل باشا ، فوزارة حلمي باشا ، فوزارة حقي باشا ، هذه الوزارات كانت تتحرك وتقوم وتأتمر بأمر الاتحاديين ، وفي الوقت نفسه هي المسئولة أمام الرأى العام والمجلس النيابي ، فمن الطبيعي أن تنهار وتنكشف سياستها ولا تستطيع دفاعا عن نفسها ، وشـــاعرنا الذي استقبلهم استقبال المنقذين ، وأعلن فرحه وتأييده لحماة الدستور - ترى ما موقفه ازاء هذه السياسة ، وهو الشاعر الحر ؟

لقد وقف موقف البطل يواصل جهاده ضد هذه الفوضى . مدافعا عن حرم الحرية الرحيب موجها للحكام تارة ومهددا أخرى : يفشل كامل باشا ، ويسيء التصرف . فاستمع للرصافي يشرح لنا كيف اســـتقبل الدستور ؟ ثم كيف انهارت هذه الآمال في سياسة كامل باشـــا في قصيدته ؟

بعد الدستور

سقتنا المعالى صرف السلاف ، وعزفت الدنيا لتهنئتنا ، وزف لنـــا أحرار جيشنا الدستور ، فأهلا به ، وشكرا لهم . وقد أصبح الشـــعب شاكرا للسيف عمله المجيد ، وكان قبل ذلك لا يشكره ولا يحمده ، لأنه يعمل فيه وفى هدمه ، لا لرفعته ورحنا سكارى من نشـــوة العز يهتف بعضنا لبعض هتاف النصر الذى يصعق الظلم ، ولاحت لنا حرية العيش عندما كشف الأحرار الستر عن وجهها ، وهللنا لها ، ونشرنا لها اشتياقنا ونحن أناس نخشى ذلك :

سقتنا المعالى من سـلافتها صرفا ... وغنت لنا الدنيا تهنئنا عزفـــا
وزفت لنا الدستور أحرار جيشنا ... فأهلا بما زفت ، وشكرا لمن زفا
فأصبح هذا الشعب للسيف شاكرا ... وقد كان قبل اليوم لا يشكر السيفا
ورحنا نشاوى العز يهتف بعضنا ... ببعض هتافا يصعق الظلم والحيفا
ولاحت لنا حرية العيش بعد ما ... أماطت(١) لنا الأحرار عن وجهها السجفا(٢)

ويطلق العنان لبيانه فى وصـــف الحـــرية التى كانت مأمولة ، ولاحت له عند اعـلان الدستور .

فجئت بمطبوع من الحسن قد قضى ... على الشعر ألا يستطيع له وصفا
عقدنا لها عقد الولاء تعشقـــا ... فكنا لها الفا ، وكانت لنا الفـــا
رفعنا لواء العز يهفو أمامهـــا ... ورحنا على صرف الزمان له حلفا

ثم جاءت الرياح بما لا تشتهى السفن ، فتقلد كامل باشـــا الحكم ، منفذا لارادة الاتحاديين ، ففشل وأعرض عن الطريق المستقيم ، وخادع واستأثر بالحكم لمصلحة حزبه ، وقد فاته أننا نكشف سره بما أوتينا من

---

(١) اماطت : أزالت .
(٢) السجاف : الستر والجمع سجف .

ألمعية ، ونلمح ماتأبطه من شرور بعين نافذة ، وقد استرسل فى اعوجاجه، فرمانا بالنظر الشزر ، والاحتقار ، فصحنا قائلين له : غض الطرف ياكامل، فما نحن بعد اليوم بقابلين للخسف والظلم .

تحمل أعباء الصدارة كامل — فناء به مالم يخف وما خفا
طوى كشحه منها وغير لطفها — وأظهر من وجه الخداع به اللطفا
نحا أن يتم الدست فيه لحزبه — علينا وظن الأمر فيما نحا ، يخفى
وانا نرى من قد تابط شره — بعين تقد الابط أو تخلع الكتفاء
لنا فطنة ترمى الزمان بنورها — فيبدو حجاب الغيث منه وقد شفا
رمانا بشزر اللحظ ، مزور طرفه — فصحنا به أن غض ياكامل الطرفا
فما نحن بعد اليوم مهما تنوعت — عناصرنا من أمة تحمل الخسفا

وتثير هذه المآسى نفس الشاعر ، فيهدد بالثورة العارمة التى تدك جبال الظلم ، وتنسفها نسفا معلنا أن العربى عنيف فى ثورته اذا دخل المعركة فلن يتراجع حتى النهاية ، اذا أفنت الحرب جياده ركب الموت فى الحرب ، وهو عنده من الجياد الكرام ! وهذا تصوير من شاعرنا للشجاعة العربية :

اذا نحن قمنا محنقين رأيتنا — ندك جبال الظلم ننسفها نسفا
ونحن اذا ماالحرب أفنت جيادنا — قتالا ركبناالموت فى حربناطرفا(١)

ويهاجم كامل فى أسلوب لائق به .

تربع فى صدر الوزارة (كامل) — فخط من النقصان فى وجهها حرفا
وأنحى عليها بالجفاء مشتتا — نجاحا بركنيها الركينين ملتفا

لقد أغضب الدستور فعلا ونية
ومن أعلنوا الدستور والشعب والصحفا

ويبين سبب عجزه عن تعليل سياسته أمام الرأى العام والمجلس النيابى :

قد استوضحوه الامر والامر واضح — فأعياه ايضاح الحقيقة فاستعفى
ولم يطلب الامهال الا لأنه — رأى عذره ان لم يطل سبكه زيفا
كذلك من صاغ الكلام ملفقا — تمهل حينا يكثر الخط والحذفا
ومن قال حقا قاله عن بديهة — ويحتاج للتفكيرمن يقصد الخلفا(٢)

---

(١) الطرف : الكريم من الخيل .
(٢) الخلف : عدم الوفاء بالوعد .

ويلتفت الرصافي الى خلف كامل ، وهو حسين حلمي (باشا) ، محــذرا اياه من الطغيــان ، ويحث مجلس النواب على السير نحــو التقدم والمجد وترك التجافي المذموم ، ويوجه الانظار الى العناية بالعلم ، فالبلاد مقفرة منه ، ويرجع السبب في عدم الامن الى اهمال ناحية التعليم ، فهو وسيلة التقدم والرقي ، ويطلب الشاعر الخير لجميع البلاد ، ويختص العراق وأهله بالذكر ، فهو وطنه الاول . ويشفق الشــاعر على العراق وحاله ، وما وصل اليه من الاستسلام ، وعدم التطلع الى مجد أهليه القديم الذي كان ضاربا رواقه على هــام الكواكب ، وكانوا به شم الانوف ، فأصبحوا يقاسون الاهوال التي تجدع الانوف ، وتركوا السعي والاعتماد على النفس ، يرجون الخير من أصحاب الخرافات :

فيأيها (الصدر) (١) الجديد اتعظ به
فاياك أن تطغى وأن تثنى العطفا

ويا (مجلس النــواب) سر غير عاثر
الى المجد لا تلقى كلالا ولا ضعفا

ودع عنك مذموم التجـافي فانما
لغير التجافي اختارك الشعب واستصفى

ألم تر أرجاء البلاد محــولة (٢)
من العلم، فاستمطر لها الديم الوطفا(٣)

ولا تنس مغبر العــراق وأهــله
فان البــلاء الجم من حوله احتفا

(فدجلة) أمست كالدجيل(٤) شحيحة
فلا أنبتت زرعا ولا أشبعت ظلفا

وان (الفرات) العذب أمسى مرنقا (٥)
به الماء يجفو أو به الماء قد جفا

سل (الحلة)(٦) الفيحــاء عنه فانهــا
حكت شهداء (الطف)(٧) اذ نزلوا الطفا

---

(١) اراد بالصدر رئيس الوزارة (حسين حلمي) .
(٢) محولة : مقفرة .
(٣) الوطف : جمع وطفاء : السحابة الكثيرة الامطار .
(٤) الدجيل . شعبة من نهر دجلة .
(٥) مرنقا : مكدرا .
(٦) الحلة : بلده بينها وبين بغداد ثلاثة فراسخ .
(٧) الطف : أرض من ضاحية الكوفة في طريق البرية . وفيها قتل أبو الشهداء الحسين ابن علي سيد شباب اهل الجنة .

فيا ويل قـــوم فى العراق قد انطووا
على الذل اذ أمست قلوبهمو غلفا
ولم يذكروا مجدا لهم كان ضاربا
رواقا على هام الكواكب قد أوفى
وكانوا به شم العرانين فاغتـدوا
يقاسون أهوالا به تجـدع الأنفـا
يرجون من أهـل القبور رجاءهم
ومن يحمـــل الدبوس أو يضرب الدفا

ولكن هل أذعن الاتحاديون لهذا التوجيه ، وعدلوا عن سياستهم ، وهدءوا من غلوائهم ؟ كلا ، فالترك هم الترك ، والاتحاديون يديرون الحكم بروحهم التركية ، فتوالت الوزارات كلها تنهل وتعب من منهل واحد ، وتضيق البلاد المحكومة ذرعا بها، وتستعر نيران الثورة في صدر شاعرنا الوطنى ، فهو رجل الصلاح يرحب به ويثنى على فاعله ، ولكنه اذا رأى الامور قد انحرفت عن الجـادة ، أرشـد وثار وأنذر فى حرية وقودها الشجاعة والوطنية ٠

ولقد رأينا شاعرنا وقد بح صوته ناصحا لهذه الفئة الباغية ، ولكن (لا حياة لمن تنادى) ، فلقد ظلوا سادرين فى طغيانهم يعمهون ، وييئس الرصافى من الاصـلاح على أيديهم ، فراح يكشف أمرهم ، ويقـــوض آمالهم ، ويحطم فى جبهاتهم المعوجة التى أضحت عشا للطغيان والفساد، ويكر عليهم فى هجوم الفارس المملوء بالشجاعة والحقد على أعدائه الذين يتلاعبون بمصيره ، ومصير أمته ٠ تعـــال معى لنلمس هذه الروح فى قصيدته التى نشرت فى المؤيد بمصر عام ١٣٢٧ هـ :

« شكوى الى الدستور »

شكاية قلب بالأسى نابض العرق
الى قائم الدستور والعدل والحق
ملوك على كل الملوك ثلاثة
لها الحكم دون الناس فى الفتق والرتق(١)
وأقسم انى لا أكون لغيرها
مطيعا ، ولو من أجلهـــا ضربت عنقى

(١) أى لا طاعة الا لهذه الملوك الثلاثة : العدل والحق والدستور ٠

فهل أيها الدستور تسمح شاكيا
بك اليـوم يرجو أن يرى نهضة الشرق

نظرنا اليك نظرة المصباح المبدد للظلمات ، والمصلح الذى يضمد الجروح ، ويزيل المآسى ، ويرقع ما اتسع من مخازيهم ، ولكن اتسع الخرق على الراقع ، وتراخى الامر ، ونفد صبرنا على مكايدهم ، فلقد اتخذوك آلة لاستئثارهم بالحكم ، وقنطرة لسعادتهم ، وهؤلاء الذين أسعدتهم أشقونا، فيا عجبا لك ، فأنت مسعد لقوم ، مشق لآخرين ، اتخذوك حجة لهم ، وما فهموا انك حجة عليهم :

ظللنـــا نرجى منك للخير راقعـا
ولكن تراخى الأمر واتسع الخرق

بك اليوم أشقانا الألى أنت مسعد
لديهم • فياالله للمسعد المشقى !

نراك بأيديهم على الخلق حجـــة
وأنت عليهم حجة لا على الخلق

قد استأثروا بالحكم وارتزقوا به
وسـدوا على من حولهم منبـع الرزق !

وفى أسلوب قوى يشرح لنا جشعهم، فالبلاد المحكومة عندهم (شاة) ليس لها حقوق ، وما عليها الا أن تدر اللبن والخير لهم وحدهم ، وكم مخضوها واستغلوا ما بها من نعم ، فهم يأخذون الزبد من بعد مخضها ، ولم يتركوا لأصحابها سوى اللبن بعد استخراج زبده فأصبح ماء لا فائدة فيه :

كأن لهم شاة وهم يحلبونها
وكم مخضوا أوطاننــا وخضة الزق(١)

وهم يأخذون الزبد من بعـد مخضهـــا
ولم يتركوا للساكنيها سوى المزق (٢)

وهم يردون الصفو منك ولم نرد
سوى نغبة من بعد سوء وهم الرنق(٣)

---

(١) مخضوا : استدروا خيرها • الزق : هو السقاء وخضة تحريكه بعد وضع اللبن فيه لاستخراج الزبد منه •

(٢) المذق : اللبن الممزوج بالماء المتخرج منه الزبد •

(٣) الرنق : العكر •

فما نحن الا كالظماء وانهم
كساق يرينا الماء عذبا ولا يسقى
ألم تر أنا طول عهدك لم نقم
نسابق أهل المجـد فى حلبة السبق ؟
ولم نك ندرى لاهتضـام حقوقنا
أنحن من الاحـرار أم نـحن فى رق ؟
ولم نسـتفد الا سـقوط وزارة
وتأليف أخرى مثل تلك بلا فرق
وما ضرهم لو أسقطوا نهـج سـيرهم
وساروا بمنهاج التبصر والحذق ؟
ألم يبصروا للعـدل غـير طريقهم
فان طريق العـدل من أوضـح الطرق
وماذا عسى يجـدى سقوط وزارة
اذا لم تقم أخرى على العدل والصـدق ؟
مضى (كامل) من قبل (حلمى) وان جرى
كمـا جريا (حقى) فمثلهما (حقى) !

ويفضح الرصافى هذه الاصابع التى تعبث بالحكم من وراء ستار ، فهذه الاصابع العابثة التى تزحزح من تشاء ، وتغدق على من تشاء ، وتأمر وتنهى خلف ستار الخزى الشـفاف عما وراءه من جرثومات خبيثة هى الطاقة الكبرى التى هى أدهى وأمر مما ذكرته ٠ وفى قول الرصافى :

« ولولا يد شدت لسانى لبحت بالسر » افصاح أيما افصـاح ، وتصوير للغدر والبطش اللذين اتسم بهما هذا العهد ٠ أو بعبارة أوضح، هذا الجنس التركى من الحكام :

وما السـهم عندى بالذى قـد ذكرته
وان كان يشـجينى ويدعو الى الزعق
ولكن وراء الستر كف خفية
تزحزح من شاءت عن الامر أو تبقى(١)
ولولا يد شدت لسانى بنسعة(٢)
لبحت بسر(٣) كالشـجا هو فى حلقى

---

(١) الكف الخفية : هم الاتحاديون ٠
(٢) النسعة : حبل من ادم ٠
(٣) الشجا : عظم يعترض فى الحلق ٠

ويلتفت الى الدستور :

فيأيها الدستور فاقض بمـا ترى
وأبرق ولكن لا تكن خلب البرق

ولسنا نريد اليـوم حكما عليهمو
ولكن نناديهم وندعـو الى الحق

تعالوا الى أمر نساويه بيننا
وبينكمو فى الجل(١) منه وفى الدق(٢)

ويترك المفاوضة الى التهديد والانذار معلنا أن العرب سيدافعون عن حق الحرية والمساواة بالسيف والقنا ، وسيهبون جميعا شبانا وشيبا من كل معتاد للحرب خواض لغمارها ، اذا ما عبس الموت وجهه لاقاه بوجه مبتسم طلق ، لا يهاب المخـاوف • وهذه شيم العربى المطبوع على العلا والشهامة والنجدة والكرامة •

فان يفعلوا هذا فيا مرحبا بهم
والا فيا سحق المعاند من سحق

سنطلب هذا الحق بالسـيف والقنـا
وشيب وشبان على ضمر (٣) بلق

بكل ابن حرب كلما شد هزها
بعزم عن السيف المهند مشـتق

تراه اذا ما عبس الموت وجهـه
بوجه يلاقى المـوت مبتسم طلق

من العرب مطبوع الطبـاع على العـلا
بديع معانى الحسن فى الخلق والخلق•

هكذا نجد الرصافى فى عدائه لسياسة الاتحاديين ، هؤلاء الذين أطلقوا على أنفسهم (جمعية الاتحاد والترقى) ، وقد كانوا سهاما موجهة الى قلب العروبة لاقت على أيديهم العذاب ألوانا، أرادوا أن يعبثوا بالقومية العربية ولغتها الاصلية ، وعملوا على سلب الحكم من أبنائها وبسط نفوذ السيطرة التركية ونشر لغتها بكل الوسائل لتطغى على العربية الفصحى•

---

(١) ، (٢) الجل والدق : الأمر العظيم والصغير •

(٣) ضمر : جمع ضامر : الفرس السريعة الجرى ، القليلة اللحم • والبلق : هى التى فى لونها سواد وبياض •

ولقد ظهروا بالمظهر المزرى الذى ملأ صـدور العرب عليهم بالحقـد والكراهية لمـا انطوت عليه نفوسهم من استهانة بالعروبة ومقدساتها والاسلام وروحانيته ، ولقد قاموا بالقضاء على معـالم العروبة واذلالها وصبغها بالصبغة التركية .

ومن الطبيعى أن تكون النتيجة السياسية لسياسة عقيمة ، قوامها التعصب والمصلحة الشخصية ، ومبدؤها الأنانية والاستغلال — هى الفرقة والنزاع ، المستمرين بين أصحاب الحقوق المسلوبة (العرب) ، وبين الجناة (الاتراك) ، بل انه قد استشرى الخلاف بين الاتراك أنفسهم تنافسا على المغنم والجاه الاجوف .

الرصافي في عهد الائتلافيين

لئن خطأت من راموا (اتحادا)
فما صوبت من راموا (ائتلافا)

فان مشارب العدوان منها
كلا (الحزبين) يرتشف ارتشافا

تمخض الشقاق بين الاتراك عن تغيير وجوه ، واحلال غيرها ، مشوبة بروحها التركية ، فينتهى عهد الاتحاديين ، ويتوارون خلف المسرح ، ليظهر محلهم خصومهم فى المطامح ، وهم (الائتلافيون) ·

واستمرت الخلافات · واستعر لهيبها ، وما كان اختلافهم لمصلحة، ولكنه التهافت على الحكم البراق ، ليأكل الاقوياء الضعفاء ، فأصبحوا شيعا : (كل حزب بما لديهم فرحون) ، كل منهم يرى باطله حقا فى مرآة الضلال ، أو يدعى انه الحق ، وما علموا أنهم يدفعون بسفينتهم الى مواطن الهلاك مستعجلين الخطى · والرصافى ساخط على هذه الحزبية وروحها المقوتة ، يراهم غمة ، فيرجو انكشافها :

الاحزاب فى تركيا

متى نرجو لغمتنا انكشافا وقد أمسى الشقاق لنا مطافا

وما زلنا نهيم بكل واد من الاقوال نرسلها جزافا

ويتكهن الرصافى بالحوادث الكامنة التى ظهر أنفها يطل مشمخرا ، ويحس بالخطر المحدق بهم :

أرى أنف الحوادث مشمخرا غدا يتشمم الحدث الجرافا(١)

---

(١) الجراف : الجارف ·

وما اختلفوا لمصلحة ولـــكن	ليأكل أقوياؤهم الضـــعافا
هو الدينار ، منة كل راج	وبغية كل من دأب احترافا
نحج لأجله بيت المخازى	ونكثر حــول كعبته الطوافا
لئن خطأت من راموا (اتحادا)	فما صوبت من راموا (ائتلافا)
فان مشارب العدوان منهـــا	كلا (الحزبين) يرتشف ارتشافا
وانى يصلح الأوطان قوم	بهـــا أشتى تدابرهم وصافا

وتنعكس هذه الروح الخـــلافية على الصحف التى هى مرآة صادقة لملامح أهلها ، تنجلى فيها خطواتهم وأفعالهم .

الصحافة فى تركيا

جرائد فى دار الخـــلافة أضرمت	لهيب خلاف بينها غير خامد
يقولون نحن المصلحون ولم أجـد	لهم فى مجـال القول غير المفاسد
لعمرى ان الصـــحف مرآة أهلها	بهـــا تتجلى روحهم للمشاهد .

هذه أفعالهم وسياستهم ، وهذه صحفهم ، أبواق انذار بالدمار ، بعد الهزال والضعف والخور لهذه الامة الظالمة ، كما تكهن بها الرصافى ، وكما تكهن به من انهيار لشبحها المخيف . وقد كان وظهر أنف الحوادث مشمخرا ، فقامت الثورات فى الاطراف الغربية (دول البلقان) بسبب نمو الروح القومية والوطنية بين الشعوب والسخط على الدولة التركية التى هى سبب النكبات الكبرى منذ سيطرتها .

وأمل العرب فى وحدة عربية بعيدة عن هذا الجو الفاسد التركى . قوامهـــا الاســتقلال والحرية والوحدة . وانتفض العرب فى اصرار على حقوقهم ، ووافقت هذه الانتفاضة القوية الحرب العـــالمية الاولى . وكان الجو موائما . والفرصة سانحة لتحقيق رغبـــاتهم فالشعب متحمس ، والروح الوطنية مرتفعة ، والحرارة القومية ملتهبة ، والقــوم فى تلهف للحرية ، ولكن شاء الله ألا يكون هذا التاريخ هو تاريخ الحرية والقومية العربية . وذلك بسبب فقد عنصر هام غاية الاهمية .

هذه القوة الـــكامنة المندلعة من قلوب الشـــعب ، لم تجد الزعيم الموهوب ، والقائد الموجه ، والرجل الحذر ، والشخصية التى تعتمد على نفسها ، وتستمد قوتها من شعبها فقط ، بعيدة كل البعد عن أنياب فهود

السياسات الخارجية ، معرضة بآذانها عن صلصلة سلاسلهم الفتاكة ، مهما زخرفوها وزينوها ، وبالغوا فى أن يظهروها فى مظهر الحلى البراقة ·

ولقد قاد الحاكم العربى الثائر على الحكم التركى ، الشعب ، وكان عملا جليلا لو لم تشوه هذه الحركة الشعبية المباركة أيدى الانجليز ، فلقد وضعوا فيها أيديهم ، وتركناهم يلوثون طهارتها ، لعدم توافر الثقة بالنفس عندنا ، وانطلاء خداعهم على الزعماء الاحرار الثوار ·

وتزاحمت الاحداث ، وانتهت الحرب ، ودارت الدائرة على الترك ، وتقلص هذا المارد الجبار فى حدوده التركية الضيقة وانحصر فيها عبثه ، وأقبل العرب فى سرور واندفاع الى حوض الحرية فى نهم ، ليرووا ظمأهم، ويشفوا نفوسهم المتعطشة ·

ولكنهم فوجئوا بمعاول الانجليز الذين وعدوهم بالحرية والاستقلال والقومية العربية ، وهى تهـــدم فى حوض الحرية والاستقلال والقومية ، وتنكرت بريطانيا للعرب بوعودها الخلابة لهم فى أثناء الحرب ، وجاءت لهم بريطانيا بأغلال جديدة من صنعها هى أشـــد قســـوة وأثقل وزنا ، فما كان لبريطانيا هم بعد الحرب سوى حمل العرب على قبول فكرة الوطن القومى لاسرائيل ونظام الانتداب ، وتمت التسوية بين الحلفاء فى مؤتمر (سان ريمو) فى سنة ١٩٢٠ ، وأسفرت عن تقرير الانتداب البريطانى على العراق وفلسطين ، والانتداب الفرنسى على سورية ، سورية ، الاسم الحبيب ، الذى تغلب على المستعمر ، وأشرقت فيه شمس الحرية والقوميه العربية ، منذ كان الاقليم الشمالى من الجمهورية العربية المتحدة ·

- ١٢ -

مذهب الرصافي في اقتناص الحرية

الرصافي وطني ثائر محب لوطنه ، كأسمى ماتكون الوطنية . لقد اختلطت بدمه ، ونبعت من قلبه ، وفاضت على لسانه صيحات تهز الدنيا ، وقد رأيناه مرتبطا بالاحتلال التركي متتبعا لمخازيه وتجهمه في كل خطوة من خطواته ، وفي كل عهد من عهوده المظلمة المتشابهة ، ناقما عليه ناصبا الشراك له رافعا في وجهه راية المعارضة والقتال ، يعبيء في جهود قومه ، ويوقظ في دول العروبة ، لتقف أمام جبروت هذا الاحتلال .

ونراه يهدد المرة بعد المرة بما في العروبة من قوة وحمية ، موقنا بأنها اذا انقضت على المستبد فستمزقه شر ممزق ، ويصور أبدع تصوير استبداد العدو واستغلاله لخيرات الشعوب ، واستدراره للبنها ، وتركها عارية جائعة ، ومنع موارد العلم عنها ، في غطرسة تركية .

ولكن مع كل هذا لا يقبل أن يستبدل بظلمات ظلمات أشد سوادا وعبودية ، وبسيد سيدا يحتاج الى رسم خطوط جديدة لمناضلته وقتاله .

وجملة القول أنه يبغض ويرتاع من أن يكون للجبـــابرة الغربيين المستعمرين سلطان على العرب ، ولا يقبل أن يكون للكافرين على المؤمنين سبيل يحذر هذا أشد الحذر . ويبعـــد عن كل طريق يكون مظنة لهذه الكارثة الكبرى ، فهو سيء الظن بالغرب وســـياسته ، يعلم أنه لا يأتي بخير أبدا ، واذا جاء بما ظاهره حسن وجميل فهذا لا يتعدى المظهر الخارجي فقط ، ولو فتش ، لانفجرت من الباطن تلك السموم الخبيثة ، والجراثيم الفتاكة !

لهذا نراه لا يخدع بأية أمنية من أمانيهم البراقة ، بل انه يخشى أن يقترب من موائدهم المملوءة بالغدر والخيانة ، واستمراء دماء البشر ، فكل أمر شعر فيه بأنفاسهم الكريهـــة أيقن أنه طريق شر على كيان العروبة ، ودمار لنهضتها ، ووقوف في وجه وحدتها .

ويلتقى الرصافى فى جهاده ضد الأتراك بزعماء الاصلاح فى بيروت ، وهم ثائرون على الحكم الجائر ، يريدون الاصلاح لبلادهم ، واقتناص الحقوق المغتصبة منهم والحرية المسلوبة بأيدى هؤلاء القوم منذ أربعة قرون ، فيضع يده فى أيديهم ، مصوبا الضربات القوية الى هذا (الصدر) الذى ابتلع أقواتهم ، واستنزف دماءهم ، فيدعو الرصافى العرب جميعا الى الانضمام فى هذا الجهاد ، حتى تكون لهم الغلبة والعزة ، ويستنشقوا عبير الحرية وأريج الحياة .

ثم انه يرى أن هذه الرغبات لن نظفر بها وتبتسم لنا ثغورها عن أقحوان أبيض ، ما لم نطلبها بالسيف القاطع عنوان القوة ، فالانسان اذا كان جادا فى أمره ، فليقف دون حقه مجاهدا ومناضلا عنه بسلاحه . وبغير ذلك ، تكون آماله حلما من الأحلام ، وخيالا ساريا فى الفضاء ، فبناء المجد لا يقوم الا على أسس من الحديد الصلب ، والا ذهب هباء تذروه الرياح !

على أن الحق لا يقطف ولا يجتنى الا عن طريق السيف ذى الشطب المضمخ بماء المنية ودمائها الحمراء منسجمة على حديه ، تشق لنا طريق الحرية ، وتروى لنا شجرتها المفداة . وان هؤلاء الأقوام الأتراك المستبدين الذين أصموا آذانهم عن صيحات المشتكين وأنات المحرومين من حقوقهم — لن يفتق آذانهم ، ويغزوها ، فتحس به ، الا صوت صليل الحسام ، فالمجد فى هذه الحياة للأقوى ، ومن ضعفت أركانه فهو فى عداد الأموات ، والعجز كالجهل فى جميع الأزمان . وهو داء ، تموت به الأمم ، أو تمسخ به مكانتها ، فالحكم مع اللئام للسيف .

فى معرض السيف

هى المنى كثغور الغيد تبتسم	اذا تطربها الصمصامة الخذم (١)
دع الأمانى أو رمهن من ظبة	فانما هن من غير الظبا حلم
والمجد لا تبنه الا على أسس	من الحديد ، والا فهو منهدم
والحق لا يجتنى الا بذى شطب	ماء المنية فى غربيه منسجم (٢)

(١) تطربها : حملها على الطرب . الصمصامة الخذم : السيف القاطع .
(٢) ذى شطب : صفة لمحذوف أى بسيف ذى شطب . والشطب جمع شطبة ، وهى طريقة فى متنه ، فى غربيه : فى حديه .

وانما العيش للأقوى فمن ضعفت — أركانه فهو فى الثاوين مخترم
والعجز كالجهل فى الأزمان قاطبة — داء تموت به أو تمسخ الأمم
والمجد يأثل حيث البأس يدعمه — حتى اذا زال زال المجد والكرم ٠

فى هذه الأبيات ، يرسم الشاعر طريق الحرية لقومه ، بريشة (فنان) ، عاش فى رحابها ، وهام بجبينها ، وولع بحبها ٠ فراح ينفق حياته فى روحاته وغدواته ، سائرا فى طريق محبوبته مناجيا لها ، عازفا على بابها أنغام الوفاء والولاء ، فكان أعرف الناس بطريقها ومهرها ٠

وتهب من الشاعر أنفاس حارة مشوبة بالحسرات المريرة ، والتأوهات المحرقة ٠ أذكاها فى نفسه تذكره ما كان للعرب من مجد ، اذ كانوا أجل الورى عزة ومقدرة ، أهلا لملاقاة الصعاب ، والتغلب عليها ، ومحاربتها ٠ اذا ادلهمت الخطوب ، ونزلت بساحتهم — هزمت فى الحال أمام عزماتهم القوية ، قضوا وهم متمسكون بعزتهم وعروبتهم وكانوا أعاريب أقحاحا ٠

وأعقبهم خلف لهم لم يتمسكوا بالشهامة العربية ، ولهذا لم يصلوا الى مكانة آبائهم ، ولم يستحقوا الانتساب اليهم ٠ ولقد أصبح الذل ضاربا رواقة فوق رءوسهم وبين أظهرهم ، ولقد نصحتهم بالكفاح والجهاد والتزام طريق آبائهم حماة الضيم ، وأنصار الحرية حتى بح صوتى ، فيا قوم ، هبوا من رقادكم ، وهذه الفرصة مواتية ٠ وقد أشرق الضياء وتبلج صبح الأمانى بقيام هؤلاء المخلصين المصلحين ، فلا تضيعوا هذه الفرصة ، حذار من التكاسل والتوانى ، فمن يعش مضيعا لفرصته ، فسيظل ملازما للشقاء ٠ فيعض بنانه من الندم من حيث لا ينفع الندم ، فهبوا الى النهوض، ولا تتكلوا على مجدكم السابق ، فتعيشوا على أشلاء هذا الفخر الذى لا يغنى ولا يشفى ، ومن يفعل ذلك ، فهو متهم فى عقله ووطنيته وهمته :

آها فآها على من كان من شرف — لليعربيين ، قد ألوى به القدم
كانوا أجل الورى عزا ومقدرة — اذا الخطوب بحبل البغى تحتزم
قضوا أعاريب أقحاحا(١) وأعقبهم — خلف هم اليوم لا عرب ولا عجم
فأصبح الذل يمشى بين أظهرهم — مشى الأمير ، وهم من حوله خدم
وكم نصحت فما أسمعت من أحد — حتى لقد جف لى ريق وكل فم
ما بالهم لم يفيقوا من عمايتهم — وقد تبلج اصباح المنى لهم
ومن يعش وهو مضياع لفرصته — ذاق الشقاء وأدمى كفه الندم
وكل من يدعى فى المجد سابقة — وعاش غير مجيد ، فهو متهم

(١) اقحام : خلص ، الخلف بسكون اللام : الجيل السيىء والخلف بفتح اللام : الجيل الصالح ٠

نفثات حارة ، ودعوة صادقة ، وروح وطنيـة عاليـة ، واخلاص فى مؤازرته للمصلحين ، ولكنه اذ شعر باتصالهم بفرنسـا فقد الأمل فى صلاحيتهم للقيادة ، لأن الاصلاح لا يمكن أن يصنع الا فى بلاده وأوطانه . ومن السذاجة أن ينتظر الانسان اصلاحا من أيد ، لن تهب لنا بسخاء ، الا رصاصها ، ليستقر فى أكبادنا وصدورنا . فالأيدى التى تقدم الشر لن تقدم الخير .

وهنا نجد الشـاعر يحمل حملة شـعواء ، باللوم الشديد ، على المصلحين ، الذين وضع يده فى أيديهم ، ورجا للبلاد خيرا من حركتهم ، لكنهـم ضـلوا الطريق ، وتخبطوا فى سيرهم ، فلا يرجى نصر منهـم ، ولا ثقة فيهم ، فلقد شوهوا منظرهم كمن شوه منظر نفسه ، فلبس الجلباب مقلوبا :

أصبحت أوسعهم لوما وتثريبـا	لما امتطوا غارب الافراط مركوبـا
من مبلغ القوم أن المصـلحين لهم	أمسوا كمن لبس الجلبـاب مقلوبا
قد يطلب الحق طيـاش فيبطله	ما كل طالب حق نال مطلوبـا
قاموا يريدون اصلاحا فقمت لهم	أستنطق الشعر تأهيـلا وترحيبا

وقد رأيت معى أيها القارىء ، أنه قام يسـتنطق الشـعر تأهيلا وترحيبا ، داعيا لهم ومعضدا لنهضتهم ، فى قصيدته السابقة .

ولقد عقدوا مؤتمرهم فى باريس وأرسل (حقى العظم) حينئـذ برقية الى جريدة (الطان) الباريسية ، يطلب فيها من الحكومة الفرنسية أن تتدخل فى أمر سورية .

ويأبى هذه الخطة شاعر الحرية ، ولا يستسيغها بأية حال :

قل (للعريسى) والأنباء شائعـة	والصحف تروى لنا عنه الأعاجيبا
علام تعقد فى (باريس) مؤتمـرا	ما كنت فيه برأى القـوم مندوبـا
وهل تعمد (حقى العظم) فعلتـه	الما نمى خبرا (للطان) مكذوبا ؟
اذ راح يستنجد الافرنج منتصفا	كأنه حمـل يسـتنجد الذيبـا
لو كان فى غـير (باريس) تألبهم	ما كنت أحسبهم قوما مناكيبا
لكن (باريس) ما زالت مطامعها	ترنو الى(الشام)تصعيدا وتصويبا
ولم نزل كل يوم من سياستهـا	نلقى العراقيل فيها والعراقيبـا
هل يأمن القوم أن يحتل ساحتهم	جيش يدك من(الشام) الأهاضيبا؟

هكذا كان شاعر الحرية ، ينظر الى كل علاقة بين الغرب والعرب ، على أنها علاقة الذئب مع الغنم ، أو معاهدة الذئب للغنم ، فهو يخاف على كل

وطن عربى • يدين لسورية بالولاء ويخشى عليهـا الذئاب ، وهو الرجل البعيد النظر الصادق الفراسة • فهو يرى فرنسا تتنمر لسورية • وقد صدقت الأيام فراسته •

هذا نهج شاعر الحرية الرصافى ، كره ونضال ، كما تراءى لك ، للاستعمار التركى • وفزع وفرق من الاحتلال الغربى • تتطلع نفسه الى حرية تامة ، تترعرع فى وطنه العربى ، وتتلألأ فى سـمائه ، ويستظل بظلالها الوارفة العربية • يرى أن الانجليز أشد فسادا وأعنف تعسفا من الأتراك ، لا تربطه بهم أية رابطة على الاطلاق ، يرى فيهم شـبح الخيانة المخيف • وأظافر الغدر الملوثة بالدماء •

تشل قبضة الأتراك الظالمة المريضة وينقشع ظلهـا الثقيل من العراق ، وطن الشـاعر ، ولكن لا لتتنفس أنفاس الحرية ، ولا ليتحرر العراق ، وتخفق عليه أعلام الطمأنينة • بل تسقط بغداد متلقفة اياهـا قبضة الاستعمار الانجليزى الطاغية الفتاكة •

وثقيل على نفس الرصافى ، أن يكون وطنه العراق فريسة يخلصها ذئب ، لا ليرد اليها سلامتها ، ولكن ليجهز عليها ، ويستبيح حرماتهـا وقدسياتها •

ولهذا ، لا غرابة فى أن نراه يفضل انتصار العهـد التركى على الانجليز يلقى عليهم التبعة واللوم لترك وطنه نهبة تباح للمعادين ، ويدعو الترك فى هذا المقام فقط بأهل الحفاظ • فمن القواعد المسلمة (أن بعض الشر أهون من بعض) ، ولكن لا يفوته حتى فى هذا الموقف أن يسجل عليهم أخطاءهم ، وأن فى قلبه منهم جراحا وآلاما :

أين أهل الحفاظ ، هل تركونى	نهبة فى يد العـدو ، وراحوا ؟
أو مـا يعلمون أن حـريمى	للمعادين بعـدهم مستباح ؟
أنا بـاق على الوفـاء وان كا	نت بقلبى ممن أحب جراح
فاليهم ومنهم اليوم أشـكو	بلغيهم شكايتى يا رياح

ولقد تيقظ الشرق ، وراح يجمع قواه فى وحدة قوية ، مجددا فكرة صلاح الدين الأيوبى ، معتمدا على ارادة الشعب الحر ، وتتساقط على أقدام هذه اليقظة سياسة الاستعمار كتساقط أوراق الخريف البالية ، وسينتصر العرب فى كل مكان ، وهـا هى ذى بشـائر النصر تسطع من سـماء الجمهورية العربية المتحدة ، التى تهـدم وتقوض المسـتعمر وأعوانه ، وأحلافه التى اخترعوها مثل حلف الأطلنطى ، وحلف بغداد ، وحلف جنوبى

شرقى آسيا ، وما يطمعون فى اقامته من حلف غرب البحر المتوسط الذى ما زالت تسيل وتتدفق فى مجراه دماء أهله ، من رصاصهم ، وأسلحة أحلافهم . ومخطىء أو خائن ، كل من يظن ان يكون السفاكون أطباء فى يوم من الأيام !

وبعد ، فقد قدمنا لك أيها القارىء الكريم عجالة خاطفة لصورة من كفاح شاعر الحرية « الرصافى فى العهد التركى البغيض ، فى مراحله الثلاث الأخيرة ، التى عاصرها الشاعر ،وعهود الاتراك ، كما رأيت ،سلسلة متصلة الحلقات ، مكبلة للأحرار العرب ، تسير على نهج واحد ، سياسة استعمارية ، تهدف الى اذلال العروبة ، والقضاء على مقوماتها ، والاستهانة بمقدساتها ،، تعاملهم معاملة العدو المنتقم .

وقد رأيت فى شعر الرصافى روح الوطنية والكفاح واضحة المعالم .

وزال العهد التركى ، وسقطت بغداد ، وجثم على صدرها الاحتلال البريطانى ، ترى ما موقف شاعرنا منه ؟ وما لون كفاحه ورأيه فى حكومات العراق المرتمية فى أحضانه ، والأحلاف والمعاهدات فى بغداد ؟

هذا ما سنجلوه لك فى الفصل التالى :

كفاح الرصافى للاستعمار البريطانى

لقد جمع الدهر المكايد كلها	بقدر كبير صيغ من معدن الخبث
وصب عليها من بئار صروفه	سجالا من الكذب المموه والحبث
وفتت أرطالا من الغدر فوقها	وعالجها بالدق والدلك والدعث(١)
وأوقد نارا للخديعة تحتها	تزيد على نار الغضى أو على الرمث(٢)
ففارت مليا فيه ثم تصعدت	بخارا بانبيق من السحر والنفث
فصاغ طباع الانجليز من الذى	تقاطر فى الانبيق كالمطر الدث(٣)

ينظر شاعرنا الى الاستعمار البريطانى نظرة الخبير بدهائه وألاعيبه ومكايده ، ولقد أراد أن يفضح أمره ويكشف ستره حتى يظهره للعالم على صورته الحقيقية التى بلغت فى القبح منتهاه ، فأعمل فكره ، وسبح بخياله ، لينتزع من الأمور الحسية صورة تنطبق على سياسة الاستعمار ، وتفصح عن أخلاقه ، وتظهر فيها طبيعته بوضوح . فجاء هذا التصوير كما ترى ، تخال (فنانا) رسم بريشته لوحة ، تجسم فيها القبح فى أبشع وجه . فالدهر جاء بقدر كبير مصنوع من معدن الخبث . ووضع فيه المكايد جميعها ،وصب عليها من بئار حوادثه سيلا من الكذب المزخرف، بباطله وفتت وطحن أرطالا من الغدر . ونثرها فى القدر ، فوق المكايد والكذب والحنث ، وأخذ يخرج هذه العناصر بمختلف الطرق بالدلك ، والدق والدعث ، وأراد أن تنصهر، وتختلط تماما، فأوقد نارا حامية تحتها انها نار الخديعة المتلائمة مع ما فى القدر ، شديدة الاشتعال ، تزيد فى قوتها على نار أشجار الغضى والرمث ، ففارت فى القدر محتوياته ، ثم تصعدت ، متحولة الى بخار فى جهاز التقطير هو العصارة لهذه الأنواع ،

(١) الدعث : هو دق التراب باليد والقدم .
(٢) الرمث : شجر عريض الأوراق سريع الاشتعال .
(٣) الانبيق : جهاز التقطير ، المطر الدث : الخفيف .

وتقاطرت قطرات كالمطر الخفيف . فصاغ الدهر الانجليز من هذه العصارة الخبيثة التى هى روح هذه القبائح !

دع اللوم واسمع ما أقول فاننى	قتلت طباع (التيمسيين) بالبحث
كأنهمو والناس ، عث ، وصوفه	وهل يستقيم الصوف فى عبثة العث؟
فكم بعثوا فى الشرق حربا ذميمة	تمثل فى أهوالها ساعة البعث
وكم أرسلوا دسا جواسيس مكرهم	على الناس يشتدون بالنبش والنبث
وهم سلبوا أرض العراق سمينها	ولم يتركوا للقوم فيها سوى الغث
اذا ما رأيت القوم فى فخ مكرهم	رقفت لهم تبكى على القوم أو ترثى
فلا ترج فى الدنيا وفاء لعهدهم	فلا بد فى الايام للعهد من نكث

ان لغة الاستعمار تختلف فى مداولتها ومفاهيمها عن لغة الحق والعدالة ، والشاعر يعرض لنا صورة صادقة لمنطق الاستعمار المعكوس وتخبطه فى فهمه للحقائق المشرقة ، وكيف تكون الحرية أمام منظاره الأسود القاتم ؟

أتدرى ما الحرية فى نظر هؤلاء المستعمرين الذين سموا أنفسهم مغالطة — العالم الحر — ثم استباحوا باسم هذه الحرية سفك الدماء واشعال الفتن فى كل بقاع المعمورة ؟ هاهى ذى أسنانهم ما زالت تقطر منها الدماء ، وأظافرهم مخضبة بالعدوان ، والنداءات المتكررة على الشعوب الأبية التى تردهم خائبين مدحورين ، ولكنهم يحاولون الاعتداء من جديد لارضاء نهمهم وجشعهم الاستعمارى ، وها هى ذى جيوشهم اذا سألت عنها فلن تجدها فى مغانيها وأوطانها ، ابحث عنها تجدها تسفك الدماء فى الجزائر ، فى عمان ، وعلى الحدود العربية لفلسطين المحتلة يدفعون باسرائيل ، ابحث عنها تجدها تستظل فى ظلال القواعد الذرية المدمرة للانسانية فى تعاون على الاثم والعدوان مع الأحلاف العسكرية .

ولا يخجلون أن يجيبوك من هذه الأماكن ، اذا ناديتهم وسألتهم من أنتم — أن يجيبوا بأنهم : العالم الحر !

هذا هو معنى الحرية عندهم ، ومن يعارض ، فليس بحر ، ومنطقهم هو هو الى الآن لم يتغير كما كان فى عهد شاعرنا . (الحرية اعدام الحرية للغير !) . وقد صورها شاعرنا خير تصوير

يا قوم لا تتكلموا	ان الكلام محرم
ناموا ولا تستيقظوا	ما فاز الا النوم

وتأخـــروا عن كل مـــا — يقضـــي بـــأن تتقـــدموا
أما الســـياسة فاتركوا — أبـــدا والا تنـــــدموا
من شـــاء منكم أن يعيـ — ـش اليوم وهـــو مـــكرم
فليمس لا ســـــمع ولا — بصر لديـــه ولا فم !

هذه هي الحرية في نظر المستعمر . التسليم المطلق لهم ، واستملاح ظلمهم ، والبعد عن أسباب التقدم ! والحر عندهم هو من يعيش على هامش الحياة ، يتلقى ضرباتهم بابتسامات عذبة ويبرر كل ما يأتون به على أنه خير :

واذا ظلمتم فاضـــحكوا — طربا ولا تتظـــالموا
ان قيل : هذا شــــهدكم — مـــر — فقـــولوا : علقـــم
أو قيـــل : ان نهـــــاركم — ليل — فقـــولوا مظلـــم
أو قيـــل : ان بـــــــلادكم — يا قوم ســـوف تقســـم
فتحمـــدوا وتشـــــــكروا — وترنحـــــوا وترنمـــوا !

هذه ترجمة قوية صادقة لعواطف الاستعماريين ، وفضح لمنطقهم، وتجبرهم ، وقسوتهم .

وشاعرنا وطني غيور ، لا تنقصـــه الجرأة ، فهـــو يجهـــر برأيه ، لايخاف ولا يخشى صولة الباطل وتعنيفه له ، فيهاجم الحكومة ، التي تعمل لحساب المستعمرين ، وتخدع الشعب ، لحسابهم ، فتشاركهم ، وتساعدهم على امتصاص دماء الشعوب والقضاء على الوطنية ، وتعيش بوجهين : فهي محكومة بالسلاسل في قبضة الاجنبي ، ذليلة أمامه ، يسيرها كيف شاء ، وتأخذ من هذه السلاسل ، لتطوق بها جيد الشعب العربي ، وتشد على عنقه بغلظة وشدة في تكبر وصلف .

يقف الشاعر في وجوه هؤلاء العملاء بلا خوف ولا مبالاة ليذيع ما عرفه على الملأ :

أنا بالحـــكومة والسياسة أعرف — أؤلام في تفنيـــــدهـــا وأعنف ؟
سأقول فيها ما أقول ولم أخف — من أن يقولوا : شـــاعر متطرف
هذي حـــكومتنا وكل شـــيوخها — كذب وكل صـــــنيعها متكلف
وجهان فيها : باطل متســـــتر — بالأجنبي ، وظاهـــر متكشـــــف
والباطن المســـــتور فيه تحـــكم — والظاهر المكشـــوف فيه تصلف !

والشاعر لا يؤمن ولا ينخدع بالالفاظ الجوفاء التى توضع فى غير مدلولاتها . فلا تتحقق معانيها. ما فائدة العلم والدستور . ومجلس الأمة اذا كانت كلها معطلة عن أداء رسالتها ؟ انها أسماء براقة فقط للخديعة والتغرير بالشعوب :

علم ، ودستور ، ومجلس أمة — كل عن المعنى الصحيح محرف
أسماء ليس لها سوى ألفاظها — أما معانيها فليست تعرف !

بهذه اللغة القوية ، واللهجة الوطنية . يوجه الشاعر آن ذاك الى الوزراء فى العراق يعيب عليهم خطتهم المعوجة . ويعجب لهم كيف يقنعون من الحكومة باسمها ، ويفوتهم أمر التصرف الحر فى مرافق الدولة ومواردها ، ويعنفهم أشد التعنيف على خورهم أمام الاجنبى . ويحيلهم الى الاحتكام الى الكراسى التى يجلسون عليها ! لقد كادت من فرط حيائها تتكسر خجلا من وضعهم الشائن . والوزراء فوقها . والأجنبى فوق الوزراء ، يسيرهم على حسب ارادته !

كيف تقنعون بمجرد الجلوس على كراسى الحكم وأنتم مكتفون بالأغلال ؟ انكم ان رضيتم بهذا فانكم تخونون الوطن بمساعدتكم للأجنبى، ولن ينسى لكم هذا ، فلابد من يوم تتكتل فيه القوى . وتنطلق قذائف الحرية ، فتحاسبكم الشعوب حسابا عسيرا . ولن تغنى عنكم الألسن تقول . ولا دموع تذرف :

بالله ياوزراءنا . ما بالكم — ان نحن جادلناكمو لم تنصفوا ؟
أفتقنعون من الحكومة باسمها — ويفوتكم فى الأمر أن تتصرفوا ؟
هذى كراسى الوزارة تحتكم — كادت لفرط حيائها تتقصف !
أنتم عليها ، والأجانب فوقكم — كل بسلطته عليكم مشرف
لا بد من يوم يطول عليكمو — فيه الحساب كما يطول الموقف
الشعب فى جزع . فلا تستبعدوا — يوما تثور به الجيوش وتزحف

بين الانتداب والاستقلال

كان الرصافي فاقد الثقة في رجال الحكومة ورؤسائها ، مؤمناً بالشعب العربي . يدعوه دائما للثورة والاصلاح ، ويفضح مخازي الاستعمار وخداعه ، ويحذر الشعب الوقوع في شراكه وبراثن أعوانه من الحكام .

ثار الشعب العربي في العراق ضد الاحتلال الغاشم البريطاني ، واضطر المستعمر الى أن يعلن استقلال العراق أمام غضبة الشعب الذي أراد الحياة !

فما رأي شاعرنا في هذا الاستقلال ؟ وهل اقتنع بجوهره ؟

يظهر رأيه بوضوح في قصيدة (بين الانتداب والاستقلال) .

سل الانجليزي الذي لم يزل له ... بدست وزير الداخلية مقعد
أأنت وزير أم عميد وزارة ... نراك اليها كل يوم تردد ؟
أنحمل منك اليوم عبء تحكم ... وندفع فيه الأجر منا وننقد ؟
وما شأن ذياك (السفير) الذي له ... على الجانب الغربي قصر مشيد ؟
تبدلتم استقلالنا بانتدابكم ... ولكن على وجه لنا هو معبد (١)

لا يطمئن شاعرنا لاستقلال تلوثه أيدي المستعمرين ، فان الاستقلال معناه التفرد التام والتصرف الحر ، ولن يتحقق هذا المعنى مع تدخل المستعمر في توجيه حركة البلاد ، ومراقبته لسيرها ، ووقوفه على أسرارها .

ولطيف جدا من الرصافي أن يستاء ويعجب لهذا الانجليزي ، يتحمل منه الشعب أثقل عبء من تحكمه ونفوذه ، ثم يتقاضى على ذلك الأجر

(١) معبد : مذل .

مقابل هذا التحكم ! ويسخر الشاعر من هذه المهازل : اذا كان الاستقلال حقيقيا ، فما بال ذلك القصر المشيد على الجانب الغربي السفير البريطاني، يصدر منه أوامره وتعليماته ، ويوجه برأيه دفة البلاد ؟

ان الاستقلال الحقيقي ليس هكذا ، انما هو حكم الشعب نفسه بنفسه ، وتفرده في تقرير مصيره ، بعيدا عن جو المستعمرين الألداء . أما هذا الاستقلال الذي تدعونه فهو كذب وافتراء ، أعانكم عليه رجال خائنون لوطنهم ، لا يهتمون بمصالح الشعوب ، ولا يعرفون الوطنية معنى ، ولا يعترفون بالقيم ، والمثل وقوة الشخصية ، ولابد أن يثور الشعب على العابثين به وبمصيره ، المرة بعد الأخرى ، حتى ينسفهم نسفا ، والغلبة للحق :

وهل يستقل الشعب في حكم نفسه	اذا لم يكن في حكمه يتفرد ؟
فما هو الا المين فيكم ، أعانكم	عليه رجال خائنون وأيدوا
وما سكت الأحرار عن مخزياتكم	فكم أبرقوا غيظا عليكم وأرعدوا
ولاتعجبوا أن يمقت الشعب دأبكم	وما الشعب الا الساخط المتمرد

للانجليز في كل مكان يحلون له مآس دامية يحفظها لهم التاريخ صفحات سوداء ، وتحملها لنا أقلام الأدباء والشعراء الذين أزعجتهم هذه المآسي فراحوا يسطرونها لعنات على الاستعمار وعهوده المظالمة . وحوادث الانجليز واعتداءاتهم متشابهة :

فيوم دنشواي في مصر شبيه بيوم الفلوجة في العراق ، واجرام الانجليز في دنشواي صورته لنا أقلام أمير الشعراء (شوقي) وشاعر النيل (حافظ) .

ويوم الفلوجة في العراق يحدثنا عنه الرصافي شاعر العراق : لن نتناسى بغيكم في العراق أيها الانجليز وسفككم الدماء ومذابحكم الوحشية في مساكن الفلوجة ، وان القلوب الكليمة المملوءة بالحقد والكره لكم لن يلتئم جرحها الا بأعمال السيوف المواضي في رقابكم . فلن نفرج عن أنفسنا هذه الكروب بغير السيوف القاضية عليكم :

أيها الانجليز لن نتناسى	بغيكم في مساكن الفلوجه
هو كرب تأبى الحمية أنا	بسوى السيف نبتغي تفريجه

وصل الجيش الانجليزي الفلوجة يريد الانتقام ، وعرض أمامه الكفار الأعاجم ، فاستهانوا بالمسلمين سفاها ، واتخذوا اليهود أولياء

لهم ، وأداروا رحى الحرب على قوم عزل يسفكون دماءهم بالغدر ، ويغتصبون أموالهم :

حلها جيشكم يريد انتقاما وهو مغر بالساكنين علوجه (١)
فاستهنتم بالمسلمين سفاها واتخذتم من اليهود وليجة (٢)
وأدرتم فيها على العزل كأسا من دماء بالغدر كانت مزيجه
واستبحتم أموالها وقطعتم بين أهل الديار كل وشيجه
أفهذا تمدين وعلاء شعبكم يدعى اليه عروجه ؟

ثم يحيى الشاعر أبطال الفلوجة وشهداءها ، ويودعهم ، ويثنى على بطولتهم الثناء العطر .

فثناء للرافدين وشكرا وسلاما عليك يا فالوجه

ويحدثنا الرصافى عن رجال حكومة العراق . الذين يظهرون أمام شعبهم بمظهر القوة والأبهة والغطرسة فى زى السادة الموقرين ، ثم ينقلبون فجأة الى المستعمر ، فيخلعون على الفور ما أضفوه على أنفسهم من ثياب الصلف ، ويرتدون ثياب الذلة والمسكنة ، يلازمون الاجنبى ، ويسيرون خلفه كالكلب خلف ظل صاحبه ، ولكن اذا خلوا الى أبناء جلدتهم الشعب الكريم فهم أسود ضارية !

تناقض فى الشخصية : سادة وعبيد ، كلاب وأسود ! يختلف الوضع باختلاف الميدان الذى هم فيه . والشاعر يذكرهم دائما بأن العهود والمواثيق بين الانجليز وبينهم خطرة عليهم وليست مجدية،لم يتوافر فيها عنصر التكافؤ كما أنها لم يتوافر فيها عنصر الأمانة من الجانب القوى :

وكم عند الحكومة من رجال تراهم سادة وهم العبيد
كلاب للأجانب هم ، ولكن على أبناء جلدتهم أسود
فليس الانجليز بمنقذينا ولو كتبت لهم منا عهود
ولكن نحن فى يدهم أسارى وماكتبوه من عهد قيود

وفى قصيدة أخرى يصف الوزارة فى ذلك العهد فيقول :

ان الوزارة — لا أبالك — عندنا
ثوب يفصل فى معامل (لندنا)
لا يرتديه سوى امرىء أضحى له —
طبعا — وداد الانجليز وديدنا

---

(١) العلوج : جمع علج : الرجل الضخم من كفار العجم . مغر : مسلط .
(٢) وليجة : بطانة .

- ١٥ -

المعاهدات والأحلاف العسكرية

شلت أكف موقعيها ، انهم
حلت عليهم لعنة الأجيال

المعاهدات والأحلاف العسكرية استعمار خطر مقنع برداء شفاف فاضح لما خلفه من قيود ومفرقعات قاتلة ، وقد يكون غير شفاف ، ولكن أمام العيون التي اكتحلت بحب الاستعمار وشغفت بترويج بضاعته ٠

وحلف بغداد امتداد لهذه المعاهدة التي يحاربها شاعرنا ، لقد عارض أشد المعارضة وأراد أن يقوض الحلف من جذوره ، ويحول دونه فهو عاشق للحرية . يوجب أن تتخلص بلاده من سيطرة النفوذ الاجنبي، لايعترف بهذه العهود التي في طيها القيود والاستعباد المموه ٠ ويفهم أن العهد بين الضعيف والقوى الغادر كالعهد بين الشاة والذئب ، اذا هادنها فللاستمتاع بمنظر فريسته ، قبل الفتك بها ، وكيف يطالب الحمل الذئب بحفظ حقوقه وكرامته ؟ ولا يفوت الرصافي أن يحمل الموقعين من جانب بغداد تبعة هذا الفعل الشنيع ومسئوليته ويدعو عليهم بالشلل. ويبلغهم لعنات الأجيال ٠

ولكنه لا يفقد الأمل في تقلب الأحوال ، واشراق النهضات بثورة الشعب لتحرير نفسه بنفسه :

نشروا (المعاهدة) التي في طيها
قيد يعض بأرجل الآمال

والعهد بين الانجليز وبيننا
كالعهد بين الشاة والرئبال

من ذا رأى ذئب الذئاب مصافحا
ومصافيا حملا من الأحمال

لـكنهم خافوا انفـكاك قيـودنا
فاسـتوثقوا منهن بالاقفـال

شلت أكف موقعيهـا ، انهم
حلت عليهم لعنة الأجيـال

هب أنهم أمنوا انفكاك قيودنا
أفيـأمنون تقلب الأحـوال ؟

وحلف بغداد امتداد لهذه المعـاهدة الانجليزية ، وبموجبـه يكون الاشتراك العسكرى من العراق مع بريطانيا ، فهو ــ كما يقول شاعرنا بحق ــ قيد يعض بأرجل الآمال .

ان حلف بغداد الاستعمارى مرتبط بحلف الأطلنطى ، فهو العضد للخطر المشترك على العروبة : اسرائيل !

وفعلا بعد عقده مباشرة ، تمخض عن تصويب ضربات لقلب العروبة، بالاعتداء الاسرائيلى على غزة ، فى ٢٤ من فبراير سنة ١٩٥٥ الساعة ١٠ر٥ مساء .

وبدأ العدوان الثلاثى على بورسعيد ، وكانت بريطانيا قائدة العدوان الثلاثى الفاشل على الأحرار والمصريين ،ومعها فرنسا واسرائيل ، وبريطانيا المتقدمة فى حلف بغداد هى الغادرة فى العدوان الثلاثى على مصر ، وحليفتها فرنسا تذبح فى الجزائر ، وانجلترة تقتل فى عمان والبحرين ، وسندهما حلف بغداد ، المرتبط بحلف الاطلنطى ، انها مآس تجعلنا نردد مع شاعرنا لموقعى الأحلاف :

شـلت أكف موقعيهـا ، انهم حلت عليهم لعنـة الأجيـال

ان القواعد والمطارات العسكرية الاستعمارية لا تتفق مع استقلال أمة محافظة على كيانها وكرامتها ، ولكن المستعمر عن طريق عيونه وأذنابه الذين يعيثون فى الارض فسادا ينشر سموم أفكاره ليدخل فى روع القوم أن القواعد والمطارات لا تتنافى مع الاستقلال فهم مستقلون أحرار . وان كانت حياتهم مهددة فى كل لحظة ، ومساكنهم عرضة للانهيار أمام انفجار القنابل المدمرة التى قد تتفجر بقصد أو بغير قصد ! وقد تكون صدور المواطنين المسالمين هدفا لأسلحة أعداء المطارات والقواعد ، فيصلون بنار حرب لا ناقة لهم فيها ولا جمل ، وفى غير ذلك هم أسرى فى بلادهم أمام

المارد المسلح فوق رءوسهم ، يفرض عليهم حكمه ، ويسير بهم فى أى اتجاه شاء ، فدفة سفينتهم بقبضته : ان شاء اغرقها أو ابقاها ، وتركهم عليها أذلاء بلا ارادة ٠

ومن العجيب أن يحاول المستعمر بعد ذلك أن يسمى هذا استقلالا واحسانا منه ! انه الاستعمار والاستعباد ، فلا تستكينوا ، وانهضوا ، وحطموا كل هذه القيود ، وابنوا لكم مجدا سامقا كالذى كان لآبائكم الاباة يسمو على مجد الفرقدين :—

وأقاموا بهـا قواعد جـو	لاحتشـاد الجنـود والطـيران
ثم بثوا العيون كيمـا يعيثـو	ن فسـادا فى ساحها والمبـانى
ثم ساروا بحـكمها سـير فلك	هم بهـا آخـذون بالسـكان
كل هذا وأنتمو مسـتقلو	ن بزعم من عنـدهم وافتنـان
أوثقوكم بهـا أسـارى وقالوا	ليس هذا لكم سـوى احسان
فانهضوا اليوم مسـتجدين مجدا	كالـذى كان دونه القمران

- ١٦ -

الشرق والغرب

شاعرنا من الابطال المهتمين بقضايا الشرق ، القائمين بالدعاية له ، لا يعرف المداهنة والضعف فى الدفاع عن حقه ، يحتفل الحزب الوطنى فى بغداد بتكريم مستر (كراين) الثرى الامريكي المشهور ، فلا يترك الشاعر هذه الفرصة تفلت وتمر ، حتى يشرح سياسة الغرب تجاه الشرق ، فيحيى الزائر بأبيات قليلة :

يـــا محب الشرق أهـــلا بك يـــا مســـتر (كراين)
مرحبـــا بالزائر المشـــهو ر فى كل المـــدائن

ثم يسترعى نظره الى حالة الشرق ، ويعرض أمامه القضبان والاقفاص الحديدية التى جاء بها الغرب الى الشرق : من جهته ، يسالم ويسلس قياده للغرب ، والغرب يتنمر له ، ويتربص للفتك به ، ويكن له الحقد والبغضاء ، ولا يعترف بميزاته ، يجحدها ، ولو كانت مشرقة واضحة وضوح الصباح، وينقب على عيوبه فيتلمسها ، ويخترعها ، ويشفى غيظه الدفين :

جئت يا مســـتر (كراين) فانظر الشرق وعـــاين
فهـــو للغرب أســـير أسر مـــديون لدائن
ان هـــذا الشرق والغـــر ب لمغبـــون وغـــابن
فترى الشرق تجـــاه الغر ب يســـعى ســـعى ماهن
وترى الغرب عليـــه واقفـــا موقف خـــائن
منـــكرا منـــه المزايـــا موجـــدا فيـــه المطاعن

يفعل هذا ، وهو عبء على الشرق ، يغتصب الموانيء ، فيشحن منها سفنه بلا مقابل ، ويحفر في أرضه البكر العامرة، والمناجم، ويأخذ ماتجود به من معادن ٠

ويستنزف آبار بتروله ، ليقيم بها صناعات ، ويحولها الى أسلحة ترتد سهاما فى صدور الشرق !

ولا يكتفى بهذا القدر من نكران الجميل ، بل يشعل الفتن والدسائس بين أهله ، ليشغلهم عن النهوض والتقدم :

غاصبا منه الموانى شاحنا فيه السفائن
حافرا فيه المعادن نابشا فيه الدفائن
فهو يمتص دماء الشرق من كل الأماكن
باذرا من كيده فى أهله بذر الضغائن
أفهذى يا محب الشرق أفعال المهادن ؟

يعرض الشاعر هذه الاحوال التى تتنافى مع الانسانية والعدالة ، انها تصدر من عدو منتقم ألد ، فأين هذه السياسة التى تظهر فى أفعالهم مما يدعونه بأفواههم ، وما أعلنه (ولسن) رئيس حكومة الولايات المتحدة الأمريكية ، من حق تقرير المصير للشعوب ، ومنحها حريتها ؟

انهم يقولون مالا يفعلون ، وليس (ولسن) فردا ولا بدعا فى عدم احترامه للوعود ، فأمثاله كثيرون من ساسة الغرب ، الذين يخدعون الشعوب بكلماتهم العذبة ، ويواجهونهم بأفعالهم القاسية المريرة ولا نجد سببا نعلل به عداءهم للشرق ، اللهم ان كان للشرق ذنب فهو ثقته فى الغرب ، وانخداعه بوعوده ، على الرغم مما ذاق منه من آلام وأهوال !
فالى متى يا ساسة الغرب تنتهجون هذه السياسة ؟ لقد أوغرتم صدر الشرق بالحقد ، وأوقدتم العداوة فى قلبه ، وستتفاعل النيران والأحقاد ، وتسفر عن حرب طاحنة ضد تعسفكم ، وأنتم المسئولون عن اذكاء هذه الحرب واشعالها .

أين ما قد قاله (ولسن) يا مستر (كراين) ؟
لم يكن (ولسن) فردا ان فى الغرب (ولاسن)
فعلام الغرب لا ينفك للشرق يضاغن
كم يسوم الغرب أهل الشرق خسفا ويخاشن !
والى كم ساسة الغرب تداجى وتداهن ؟
كم وكم تسمع منهم قول خداع ومائن
ان فى الشرق تجاه الغرب نيرانا كوامن
فاذا قامت حروب من بنى الشرق طواحن
فمن المسئول عن ذلك يا مستر (كراين) ؟

ثم ينتقل الشاعر من الحديث عن الشرق عامة الى حديث خاص عن وطنه الأول : بغداد . وقد ساءه ما يعانيه من سياسة الانجليز وتدخلهم في شئونه الخارجية والداخلية وافساد أحواله السياسية والاقتصادية والثقافية من وراء ستار . فاذا سألت عن حال الحكم في بغداد فهو شرقي في ظاهره ، غربي انجليزي في حقيقته ، فرجال التنفيذ شرقيون ، والأوامر أجنبية انجليزية تصدر من لندن !

والحكام في بغداد يملكون كل شيء اسما فقط ، وفي الحقيقة لا يملكون تحريكا لساكن انها حالة يرثى لها ، وتشمئز منها النفوس الكريمة :

واذا تسـأل عما هو في (بغـداد) كائن .
فهو حكم الشرق في الضرع وغربي الملابن (١)
وطني الاسم لكن انجليزي الشناشن (٢)
فيه للايعاز من لنـدن بالأمر مكامن
قد ملكنا كل شيء نحن في الظاهر لكن
نحن في الباطن لا نمـلك تحريكا لساكن
أفهذا جائز في الغـرب يا مستر (كراين) ؟

(١) الملابن : قالب يوضع فيه اللبن .
(٢) الشناشن : الطبائع .

مظاهر التعصب فى عصر المدنية

عنوان قصيدة للشاعر قالهـا ردا على لجنرال (غورو) حينما ألقى مقاله المشهور على المسلمين فى بيروت وقد تذكر هذا (الجنرال) أن أجداده الغربيين حاولوا الاستيلاء على هذه الأراضى المقدسة ، ولكنهم باءوا بالفشل فلم يستطيعوا الوقوف أمام قوة الشرق ، وردوا مدحورين يجرون وراءهم أذيال الهزيمة ، بعد أن رويت الأرض بدمائهم بسيوف الأحرار المؤمنين بأوطانهم وعروبتهم وحريتهـم ، وظلت مرارة الخيبة ونار الحقـد تأكل فى صدور الغرب ، يتوارثها جيلا فجيلا :

فلما تسللوا الى الشرق فى فترة أخذته فيهـا اغفاءة من أظهروا ما عندهم من حقد وتعصب ، وما عرفوا للشرف ولا للانسانية قدرا لم يحترم هذا الجنرال كغيره من قادة الغرب عواطف المسلمين ، وأمعن فى التشـفى باثارة ذكر الحروب الصليبية ضد الاسلام ، فانبرى شـاعرنا ليبين له سفاهة الغرب وتعصبه وفضائحه المخزية ، وفضـل الشرق الذى مازال يرفل (الجنرال) فى ثيابه ، منكرا له ، فلولا الشرق ما وقفت رايتهم لحظة واحدة بلا هبوط :

رويدك (غورو) أيهذا (الجنرال) ... فقد آلمتنـا من خطـابك أقوال
أتيت بلاد الشرق من بعـد هدنة ... قد اضطربت فى المسلمين بها الحال
فذكرته أهل الصـليب وحربهـم ... اذ انبعثت منهم الى الشرق أبطـال
وقلت عن الافرنج قومك انهـم ... لأبطال هاتيك المعـارك أنسـال
فحركت حزنا كان فى الشرق ساكنا ... وجددت عهدا منه فى الشرق أوجال

لقد أثار العواطف وفجر الجروح ، كيف يصـدر هذا الكـلام من (جنرال) مسئول ويدعى الغرب أنه أهل المدنية ؟ ولو قلنـا مثل هذا لرمونا بالتعصب ، وخالفوا وجه الصواب ، وقالوا انها جاهلية ، ولكنهم قوم امتازوا عن البشر بأنهم لا يدركون عيوبهم :

وتلك لعمرى فرحـة قـد نكأتهـا ... بما قلته فاهتاج بالشرق بلبال(١)
فياعجبـا من أمة قدت جيشهـا ... تشـابه كردينـا لهـا والجنـيرال
ولو أننـا قلنا كمـا أنت قائل ... لأنحى علينـا بالتعصب عـزال
وقالوا لنـا : أنتم أولو جاهليـة ... وان خالفوا وجه الصواب بماقالوا
فلا تصمن الحرب بعد انقضائهـا ... بما هو للدنيا وللدين اخجـال

ويذكره بأنه ما دخل الشرق الا بمساعدة أهله ، ووقوفهم بجانبه ، فلسيت الشجاعة الصليبية الغربية هى التى مكنت له ، ولكنها الغفلة من الشرقيين ، الذين انخدعوا بوعود الغـرب وأساليبه المعسـولة ، وتلويحه لهم بالألفاظ الميتة المعانى عند الغرب : الحرية ، وحق تقرير المصير ! فقاموا فى صـف الغرب بقيـادة الشريف حسين الـذى أغراه سرابكم البراق ، فكانت النتيجة تنكركم التام للشرق والشرقيين :

ولا تنس فضل الشرق اذ كان (ناصرا) ... لقـومك فيمـا أحرزوه ونالوا
فقد قادت الأعراب نحو عدوكـم ... خيولا لها فى حومة الحرب تجوال
وقامت لـكم منهم بمـكة راية ... لكم فتحت فيها من القدس أقفـال
لقد أغضبوا البيت الحرام وربـه ... وهم بمقام البيت لاشك جهـال
ولو أن عهـد المسـلمين كعهدهم ... قديما لحالت دون ذا النصر أهوال

ويهدم الشاعر كيـان الجنرال (غورو) وأمثاله ويخرس لسـان الغربيين حينمـا يعرج بهم على بطل الوحدة العربية ، القـائد المظفر (صلاح الدين الأيوبى) ان مجرد ذكر هذا الاسم العظيم كفيل بأن يغرق الجنرال الافرنجى فى جو من الخزى والخجل ، فيتوارى سابحا فى موجات الهزيمة ، فاقد القوى ، اذ يدعو الشاعر أحبـاءه ليحيوا بطل العـروبة والاسلام (صلاح الدين) ، وهو بدعوته هذه انما يدعو للتكتل والوحدة للوقوف فى وجه الغرب :

خليلى قوما بى تطاطىء رءوسنا ... لدى جدث تعنو لمن ضـم أجيـال
لدى الجدث الفرد الذى فيه قد ثوى ... من الملك الفرد (ابن أيوب) رئبال(٢)
حنانيك ياقبر (ابن أيوب) فانصد ... ع لينهض ثاو فى مطاويك مفضال
اليك (صلاح الدين) نشكو مصيبة ... أصيب بها قلب العلا فهو مغتال
وقطبت الأيـام حتى تشـابهت ... بهـا غدوات كالحات وآصـال
وأمسى حمى الاسلام تنتاب روضه ... فترعاه من سرج المعادين آبال (٣)

---

(١) بلبال : خاطر .
(٢) الرئبال : الأسد .
(٣) آبال : جمع ابل .

كذلك ثار الشاعر على الاقطاع ثورة عنيفة ساءه أن تتقطع أحشاء الفقراء والمساكين جوعا ، وبجوارهم الأغنياء أصحاب الثروة الطائلة والبطون المتخمة فلا يحسون بآلامهم ، ولا يسمعون لانينهم ولم يعترف الأغنياء بفضل الله ، فلم يعطوا من مال الله الذى آتاهم من فضله ، بل أوصدوا باب البر والاحسان ، وفتحوا أبواب الفسوق والعصيان . واستعبدوا الطبقة الكادحة من العمال ، يسخرونهم بأجر زهيد مستغلين حاجتهم الملحة ، مهددين لهم بسوط الحرمان المزعج ، ان أرادوا الانصاف واستيفاء حقوقهم المهضومة • الفقير عند الغنى أجير ومستخدم فى عقاره ، ومن كده ونصبه تكونت ضياع الغنى وثروته ، وعلى أكتافه حصد ثماره ، ثم هو يضن عليه ، فلم يعطه الا اليسير ويحتقره ويلبس نفسه العز الموهوم ، على حساب اذلال العامل الكادح ، الذى ينتحر ببطء فى المصنع والحقل ، ليعيش غيره متمتعا جاحدا فوق أشلائه • ومرارة الفقر وألم الفاقة والحرمان يعرفها الرصافى حق المعرفة فطالما اصطلى بنيرانها المهلكة :

أرى كل ذى فقر لدى كل ذى غنى أجيرا له مستخدما فى عقاره
ولم يعطه الا اليسير وانما على كده قامت صروح يساره
يشد الغنى أزر الفتى فى حياته وما الفقر الا مكسر فى فقاره

وكتب نثرا فى هذا المعنى يقول :

ان العراق (١) اليوم يمثل العصور الاقطاعية باشوه وجوهها السود، وأقبح صورها المنكرة ، اذ ترى فيه من ملك ألوف الفدادين من أراضيه التى تسقى سيحا ، أو بوساطة المضخات ، وترى فى ملكه الواسع العظيم ألوفا من الناس ، يكدون له ، ويكدحون ، ويحرثون ، ويزرعون ، وليس لأحدهم من مرافق الحياة سوى ثوب من أسمال ، ورغيف خشكار • وترى صاحبهم فى نعيم سابغ ، وعز باذخ ، وشرف شامخ • يقضى أوقاته فى عيش رغيد ، وفى قصف ولهو من كد هؤلاء المدقعين الذين يتجرعون كئوس البؤس والشقاء !

(١) الرصافى : تأليف مصطفى على بالعراق ص ٢١١ •

الوحدة العربية

شاعر الحرية الثائر على قيود الاستعمار وأغلاله ، الناقم على أعوانه وأحلافه وقواعده ومطاراته وحكوماته - هو شـاعر العروبة الثائر على الحدود المصطنعة والخطوط الوهمية التي رسمها الاستعمار بدسائسه وفتنته وغدره · وأراد أن يجعل منها حاجزا منيعا حديديا بين أمم العروبة التي يجمعها لسان عربي مبين ، تتذوق منه سحر البيان ، وتحس فيه روعة الأسلوب وسمو المعنى ، وما كان لنفس حرة ترضى بهـذا الحكم الجائر ، فكانت ثورة الأحرار ، والدعوة الى العروبة ، وفكرة الوحدة العربية هي الأمل المحبوب الذي ولع به الرصافي ، وجند نفسه لحمل رايته ·

والمتصفح لديوانه يجد تحمسه القوي ، ودعوته الحارة للوحدة ، في كل مناسبة · ومامل العزف على هذه النغمة الحبيبة ، وتحريك هذا الوتر الحساس ، في وقت كان الاستعمار لم يهزم بعد ، يفرض أوامره ويتحكم في لغات الشعوب تحكمه في انتاجها ومصيرها ·

وقد رأينا من جراء هذا الاستبداد الاستعماري وتفرقته بين الشعوب كثيرا من الشعوب الاسلامية وزعمائهـا ، ولغتهم القرآن العربي المبين - لا يستطيعون التحدث بالعربية ، لأن الاستعمار فرض عليهم لغته هو ، وعزلهم عن أبناء جلدتهم ، وما كان يدور بخلد الكثير في ذلك الوقت أن هذا الحلم الممتع والأمل السـعيد ستحققه الأيام ، فتبزغ شمس الوحدة وضاءة بجبينها الوضاح ، تسهل السبيل للأحرار في كل مكان ، وتحرق بأشعتها الجراثيم التي تعطل جهاز التقدم والنهوض ، لأنها لا تستطيع أن تعيش الا مستترة في الظلمات ·

ويدعو شاعرنا الى الاتحاد والتعاون وانكار الذات ونسيان الأحقاد في سبيل رفعة الوطن العـربي ، فالمواطنون اخوة ، تجمعهـم روابـط الوطنية ، والمسـلمون والمسيحيون مشـتركون في الأوطان واللسان والايمان بالله ، مطالبون بالعمل لاحياء مجد العروبة :

اذا القوم عمتهم أمــور ثلاثــة : لســان ، وأوطــان ، وبالله ايمان
فأى اعتقــاد مــانع من أخــوة بها قال (انجيل) كما قال(قرآن) ؟
مواطنكم ياقــوم أم كريمــــة تدرلكم منها مدى العمر البــان
نمتكم الى المجد المؤثــل (تغلــب) كما قد نمتكم للمكارم (غســان)
فلا تنكروا عهــد الاخاء وقــد أتت تصافحكم فيــه نزار وعــدنان
أجب أيها الندب المسيحى مســلما صفالك منــه اليــوم سر واعلان
ألا فانهضــا نحو العدا وكلاكمــا لصاحبه فى المأزق الضــنك معوان

والنهضة الحقيقية عند الشاعر هى التى تضرب خيامهــا على مغــانى العروبة ، وترف فى سمائها الصافية فى وحدة أساسها الايمان والاخلاص والأخوة والعمل لرفعة العروبة :

سننهض للمجــد المخلد نهضــة يقر بها (حوران) عينا و (لبنان)
وتعتز من أرض الشآم (دمشقها) وتهتز من أرض العراقين (بغدان)
وتطرب فى (البيت المقدس) صخرة وترتاح فى (البيت المحرم) أركان
وتحسن للعرب الكرام عواقب فيحمدها (مفت) ويشكر (مطران)

والشاعر مؤمن بالعروبة والأخوة والوحدة العامة ، ولا بد من قيادة للعروبة ، نابعة من قلبها • فلمن تكون القيادة ؟

شاعر العراق يبايع مصر الوحدة :

اذا (العروبة) حلت عرش دولتها (فمصر) تاج لها قد صيغ من ذهب

الشاعر يدين لمصر بالحب والولاء ، ويراها ذات الحسب والمجد ، يزف اليها التحايا متصلة بلا انقطاع ، ويترجم لغــة الأمواج فى دجلة والفرات بأنها تحايا الى النيل رب الشعر والأدب ، والشاعر واثق من تحقق فكرة العروبة • وعند تحقق هذا الأمل فمصر تاج ليس مرصعا بالذهب ، ولكنه صيغ من معدنه الصافى •• ومؤهلاتها : العلوم والأدب • كم قام فى أرجائها للمجد علم تهفو ذؤابته بالعلم والأدب • ولها السبق فى معترك السيف • قامت بها دولة السيف قبل دولة القلم ، طلعت شمسها فى الشرق ، منذ الفتح الاسلامى من أفق الفســطاط • ويرى مصر من ضئضىء (١) العرب ، ويستشهد على رأيه بالتاريخ • وليس فرعونها ببعيد عن العرب فى النســب ، فهى عربية فى أضرها وماضــيها ، ربة السيف والقلم والمجد والحسب :

(١) ضئضئ : بكسر فسكون فكسر : أصل •

منى الى (مصر) ذات المجد والحسب ... تحيـــة ذات ود غـــير مقتضب

تدلى بها (دجلة) اللسناء من مقة(١) ... منها الى (النيل) رب الشعر والخطب

اذا العروبة حلت عرش دولتهـا ... فمصر تاج لها قد صيغ من ذهب

كم قام للمجد فى أرجائها عـلم ... تهـــفو ذؤابتـــه بالعـلم والأدب

قامت بمعترك الأسياف دولتهـــا ... من قبـــل معترك الأقلام والكتب

من أفق فسطاطها فى الشرق قد طلعت ... شمس اذا غاب قرص الشمس لم تغب

انى أرى مصر والتاريخ يشهد لى ... تحيا بعرف بها من ضنئضىء العرب

وليس فرعونها ممن يشـــط به ... بعد عن العرب العرباء فى النسب

يمت للعرب ماضيها وحاضرهـا ... بنسبة غضة فى المجـد والحسب

وفى هذه القصيدة نفسها يعرج الشاعر على شبه الجزيرة العربية، مشرق حامل لواء الوحدة ، صاحب النهضة الشاملة ، الذى غمر العـالم بالأضواء الربانية ، من مشكلة التعاليم السـماوية ، فكفى شبه الجزيرة فخرا وشرفا ضم هذه البلاد للقبر النبوى الذى أعلى قدرهـا ، ففاقت الشهب . لقد ضم شبه الجزيرة العربية جوهرة من معدن الله ، هو قبس من نور الله سبحانه وتعالى . بفضله اعتنقوا دين التوحيد عن علم ، فوحدت بينهم الرابطة الالهية ، فأصبحوا بنعمته اخوانا كالجسد الواحد مؤتلفين روحا كأنهم لأم واحدة وأب واحد :

كفى الجزيرة فخرا فى مكارمهـــا ... (قبر) أناف بها قدرا على الشهب

(قبر) بتربتها قد ضم (جوهرة) من معـــدن الله لا من معـــدن الترب

قامت (بصاحبهم) للعرب نهضتهم ... تذكو بعزم لهـم كالنـــار ملتهب

قد وحـدوا الله عن علم فوحدهم ... روحـــا فخيـلوا لأم كلهم وأب

اذ أصبحوا كبنى الأعيان تجمعهم ... لله وحدتهـــم فى كل مطلب

وفى ظل (الوحدة النبوية) نشروا رايتهم البيضاء فى نقائها وصفائها فى الشرق والغرب فى فترة قصيرة مرتكزة على أسس متينـــة من العدل والكفاح والصبر ، وما كان هناك الا المساواة . الناس سواسية كأسنان المشط ، لافضل لعـربى على أعجمى الا بالتقوى ، فلا اقطـاع ماديا ولا أدبيا ، وبهذه المبادىء والمثل العملية القويمة اندمجت فيهم الرعـــايا ، ودعيت الجيوش الاسلامية لتسلم لواء الحكم العـادل ، لتحرر الدنيا من العبودية والطغيان ، ولجأ المعذبون فى الارض الى حظيرة (الهدى النبوى) لتمكن لهم الأمن والطمأنينة والعدالة والسلام :

---

(١) مقة : حب .

فى الشرق والغرب كمرأى لهم ركزت ... فى مـدة هى بين الورد والقرب
حتى لقد ملكوا الأمصـار مملكة ... كانت بسرعتها من أعجب العجب
العدل شـيمتهم والعفو عادتهـم ... والصـبر ديدنهم فى كل محترب
ما كانت الناس فى أيام دولتهـم ... الا سـواسية فى الحكم والرتب
من أجل ذاك الرعايا فيهم اندمجوا ... مستعربين وما كانوا من العرب

والطريق العملى لنجاح العرب هو النهوض للمجد فى ضوء الوحدة العربية ، فمن العار التفرقة التى منيت بها بعض الدول العربية مخالفة التعاليم السماوية ، فانقلبت شر منقلب ، وأضحت طعمة للاستعمار وعملائه . اعتصموا بحبل الاتحاد ينصركم الله ويثبت أقدامكم ، تناسوا الأغراض الشخصية والمآرب الزائفة ، تنهض بلادكم . وسلوا عن ثمرة الاتحاد المعارك الاسلامية : انتصر خالد على جيوش الروم ، بتوحيد الصفوف فى اليرموك ، وبالاتحاد انتصر سعد بن أبى وقاص على جيوش الفرس فى القادسية ، فالنصر فى الاتحاد ، والفشل فى التفرق :

بنى العروبة هبـوا من مراقدكم ... الى متى نحن نشكو صولة النوب؟
فقد لعمرى افترقنـا شر مفترق ... وقد لعمرى انقلبنـا شر منقلب
أما تغارون يا أهل الحفـاظ على ... حق لكم بيد الأعـداء مغتصب ؟
لا تكتفـوا بافتخـار فى أوائلكم ... فنشوة الخمـر لا تغنى عن العنب
بل فانهضوا للمعالى مثل نهضتهم ... واستعصموا باتحاد محكم السبب
كانت أوائلكم فى (وحـدة) تركت ... أعداءهم قددا فى قبضـة الرهب
سلوا بذلكم (اليرموك) واديـه ... فانه بسـوى ما قلت لم يجب
عن (خالد) بطل الأبطال أنجدنا ... اذ فل جيش العدا بالقتل والهرب
و (القادسية) عن (سعد) محدثة ... بقتل (رستم) رب العسكر اللجب
اذا علمنـا بأن النصر طالعهـم ... من أفق وحدتهم لم يبق من عجب
أقول والبرق يسرى فى مراقدهم ... (ياسارى البرق أيقظ راقد العرب)

والرصافى شاعر مجيد ، ومؤرخ ممتاز ، تناول الأبحاث الدينية ، والشخصية المحمدية . وحسبنا هنا أن ننقل له صورة الحرية فى اطار الوحدة الاسلامية :

« يجب (١) على المسلم أن يكون حرا فى حيـاته ، وحرا فى تفكيره أيضـا :

---

(١) نقلا عن كتاب الرصافى لمؤلفه مصطفى على .

أما كونه حرا فى حياته فلأنه بقوله ــ لا اله الا الله ــ يتجرد من كل عبودية لغير الله فلا يخضع لسلطان الا سلطان الله ولا يقبل حكما الا لله وحكم الله وسلطانه لا يتجليان له الا فى الشرع الذى أنزله الله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وفى القانون الذى أجمع عليه المسلمون ؛ لأن اجماع المسلمين منبعث من وحدتهم ، فهو يحمل روح الاسلام الذى هو دين الوحدة ، فلهذا يكون حكم القانون حكم الله وسلطانه سلطان الله .

وبالجملة فعلى المسلم ألا يقبل حكما الا لله ، وألا يخضع الا لسلطان الله ومتى كان كذلك كان بلا ريب حرا فى حيــاته التى يمثلهــا قوله (لا اله الا الله) .

وأما كونه حرا فى تفكيره ، فلأمرين :

أحدهما : أن الشرع الاسلامى جعل العقل مناط التكليف ، فلا يكلف الا من كان عاقلا ، وليس المراد بالعقل هنا ، ما يقابل الجنون ، لأن المجنون غير مكلف شريعة الهية كانت أم بشرية ، كمــا أنه ليس المراد بالعقل هنا معناه المتعارف عند الناس من ادراك الأمور وفهمها بدليل أن الصبيان الذين هم دون بلوغهم سن الرشد عقلاء بهــذا المعنى ، وهم مع ذلك غير مكلفين ، فى الشرع ؛ وانما المراد بالعقل هنا ما يشمل الفــكر الذى هو حركة فى العقل ، والذى يتوصل به الانسان من معلوم الى مجهول ، وبعبارة أخرى : المراد بالعقل هنا هو النظر والاستدلال .

وأيضا قال علماء الكلام فى كتب العقائد الاسلامية : ان معرفة الله واجبة بالنظر والاســتدلال ، وقد جعلوا معرفة الله أســاســا فى الديانة الاسلامية لكل تكليف وارد فى الشرع . واذا كانت معرفة الله واجبة بالنظر والاستدلال أى بالتفكر كان التفكر واجبا على كل مسلم مكلف فى شرع الاسلام ، ولهذا نرى القرآن يدعو الى التفكر ويأمر به فى كثير من الآيات .

والآخر : أن دين الاسلام ليست فيه رياسة دينية لأحد على أحد ، فلا أحبار فيه ولا قسوس ولا رهبان ، فلا يكون المسلم تبعا لغيره فى معرفة أموره الدينية المتعلقة بحياته اليومية ، أى لا يجوز أن يكون محاكيا لغيره فى تلك الأمور ، بل عليه أن يكون حرا مطلق التفكير ، فى جميع نصوص الشرع وأدلته بحسب اقتداره واجتهاده ، على شرط ألا يخرج به اجتهاده عن الوحدة الاسلامية ، تلك الوحدة التى لا يتقيد تفكيره واجتهاده بشىء غيرها ، والتى لا يدين لله الا بها .

هذا فى النصوص الشرعية التى هى كتاب الله وسنة رسوله :

قل لمن رام صدعنا بشقاق ... أنت كالوعل ناطح الصفوان (١)
ويك ان الاسلام أوجد فينا ... وحدة مثل وحدة الرحمان
فاعتصمنا منها بحبل وثيق ... هو حبل الاخاء والايمان
ليس معنى توحيدنا الله في الملسة ... الا اتحادنا في الكيان
فلهذا نعم لهذا ، لهذا ... نحن دنا بوحدة الديان
فهدانا بها اله قديم ... واحد عنده القرون ثوان
ما نرى سلطة علينا لخلق ... غير سلطان خالق الأكوان

ونواصل السير منتقلين مع شاعر العروبة في سمائها الرحيبة ، محلقين فوق أغصانها النابضة بالحياة ، مطوفين بين زهراتها ورياضها الفيحاء ٠

في سورية

الشاعر على اتصال وثيق بهذا البلد العربي وشعبه الأبي ، يحس شاعرنا في سورية وفي دمشق بأنه في الجنان ، بغير ولدان وحور ، في أمن وسلام ، بين أهله وعشيرته الأكرمين ، يهدىء من روع أمه ، مطمئنا لها بأنه في دمشق ، بين الغطارفة الشجعان ، الذين تخافهم أحداث الدهر اتخذوا الحرية معشوقة ٠ فهم أحرار في شمائلهم وأفعالهم وضمائرهم :

من كان يأرق بالهمو ... م فقد أرقت من السرور
وطربت من صوت يجي ... ء الى من غرف القصور
فحسبت نفسي في الجنا ... ن بغير ولدان وحور
وطفقت أذكر (العرا ... ق) فعاد صفوى ذا كدور
فرجعت عن ذاك السما ... ع وغبت عن ذاك الشعور
وذكرت من تبكي هنا ... ك على بالدمع الغزير
تستوقف العجلان ثمة ... بالأنين عن المسير
وتقول من مضض الفرا ... ق مقال ذي قلب كسير
أبني سر سير الأما ... ن من الطوارق في خفير
يا أم لاتخشى فان ... م الله يا أمي مجيري
ودعي البكاء فان قلـ ... ـبي من بكائك في سعير
أعلمت انى في (دمشق) ... أجر أذيال السرور
بين الغطارفة الذين ... تخافهم غير الدهور

(١) الحجر الشديد الأملس ٠

من كل وضاح الجبين أغر كالبدر المنير
حلو الشمائل والفعائل والطواهر والضمير

ويحس الشاعر باحساس دمشق تنفذ زفروتها سهاما الى قلبه ، فمصابها سنة ١٩٢٦ هو مصاب النيل فى مصر ، والرافدين فى العراق ، كما هو مصاب الغوطتين فى سورية ، وهذه الجراح التى أدماها الحريق هى جروح العروبة جمعاء ..

وتشريد المستعمر الفرنسى وطغيانه واعتداءاته المتكررة على أبناء سورية اعتداء على الوطن العربى أجمع كذلك .

والشاعر يلبى النداء متحمسا للدفاع وأخذ الثأر من أعداء العروبة بايقاد نار الحرب الزبون المهلكة لهم ، مواصلا الكفاح من أجل السيادة العربية :

وباتت وقد مد الظلام رواقه ... وخيم صمت فى الدجى وسكون
اذا هى مدت فى الدجنة صوتها ... تميد له فى (الغوطتين) غصون
وتلهب منه فى الفضا بشرارة ... فتبصرها فى (الرافدين) عيون
وتهبو له فى ساحل (النيل) هبوة ... (أبو الهول) منها واجد وحزين
ومن بعد وهن أشرق البدر طالعا ... فأسفر عنها عارض وجبين
فأبصرت منها الوجه أزهر مشرقا ... بخديه سر للجمال مصون
وقلت لها : من أنت ؟ رحماك اننى ... لك اليوم خل صادق وأمين
فقالت وقد ألقت الى بنظرة ... عن القصد فيها معرب ومبين .
أنا البلدة الثكلى (دمشق)ابنه العلا ... أما أنت فى مغنى دمشق قطين ؟
ألم تر أبنائى يساقون للردى ... فمنهم قتيل بالظبا وسجين
فاين أباة الضيم من آل يعرب ... ألم يأت منهم (ناصر) ومعين ؟
فقلت لها : لبيك يا أم انهم ... سيأتيك منهم بارز وكمين
سندرك فيك الثأر من أنفس العدا ... ونوقد نار الحرب وهى زبون

لبنان

وجد الشاعر فى (لبنان) الجمال الساحر ، والطبيعة الضاحكة ، والحسن أينع غرسه حتى أصبح يمكن لمسه بالأنامل الحساسة . انه بلد جميل رائع القسمات : مياه فضية ، وزروع سندسية وجبال ذهبية ، تضىء نجوم السعد متألقة فى سمائه الصافية ، فتذهب شؤم الدهر ، ويهمس جوه بأغانيه فى أذن الطبيعة ، فتغرق فى الضحك والبشر ، والنسيم الطلق بين جنباته أنشودة حبيب ، يهز النفس جرسها ، فلا غرابة

أن يحس الشاعر فيه باحساس فريد فى الروعة والجمال وحسبنا أن نعلم أنه قيس لبنان . ولبنان ليلاه :

أرى الحسن فى (لبنان) أينع غرسه — وقارب حتى أمكن الكشف لبسه
لقد لبس الجو اللطيف فزانه — بما فيه من غر المحاسن لبسه .
ففى الليل لم يزعجك برد نسيمه — وفى الظهر لم تلفحك فى الحر شمسه
تضىء نجوم السعد واليمن فوقه — فينجاب شئوم الدهر عنه ونحسه
ويهمس فى أذن الطبيعة جوه — فيضحكها فوق الربا الخضر همسه
كأن النسيم الطلق بين جنانه — غناء حبيب يطرب النفس جرسه
كأن جبال المتن حدبة عابد — هوى ساجدا شكرا وبيروت رأسه
وان تزر (الشاغور) يوما تجد به — من الحسن ماقد خص بالفصل جنسه
جرى ماؤه العذب الزلال محاكيا — به الماس صفوا أوهو الماس نفسه
فيالائمى فى حب (لبنان) اننى — أحس لعمرى منه مالا تحسه
اذا كان (لبنان) (كليلى) محاسنا — فلا تعجبوا من أننى اليوم (قيسه)

ليبيـــــا

برقـة

شاعرنا يشرق ويغص بالماء الفرات البارد حينما يرى أرض برقة تسام بنيران الحرب الطليانية ، فيحز فى نفسه أنه ليس قريبا من المعركة ، ليسهم فى الدفاع عن الوطن الاسلامى العربى ، وحالته كالأسد المكبل ، يرى شبله فى فم الذئب ، فيزأر ، وينشب مخالبه فى الأرض ، ولكنه لا يستطيع الوصول الى المعركة ، ليشفى غيظه ، ويحمى ولده .

وينطق الشاعر ، يحيى روح الوطنية والقوة ، والصوارم الفتاكة القوية ، فى أيدى المجاهدين ، من (بنى غازى) عاصمة (برقة) :

أما والعلا يا أرض (برقة) اننا — لنشرق من جراك بالبارد العذب
نراك على بعد تسامين ذلة — فيحزننا أن لم نكن منك بالقرب
وما نحن الا الليث شدت قيوده — وألقى حيا ، شبله فى فم الذئب
يرى الشبل مأكولا فيزأر موثقا — ويضرب كفيه على الأرض للوثب
فلا يستطيع الوثب الا تمطيا — وزأرا وانشاب المخالب بالترب
ويا أهل (بنغازى) سلام فقد قضت — صوارمكم حق المواطن فى الذب
حميتم حمى الأوطان بالموت دونها — وذاك بما فيكم لهن من الحب
ويامعشر الطليان قبحت معشرا — ولا كنت ياشعب المخانيث من شعب

طرابلس الغرب

وهى العاصمة الثانية للمملكة الليبية المتحدة التى تضم فى لوائها ثلاث ولايات : برقة ، وطرابلس ، وفزان ، وقد حصلت ليبيا على استقلالها فى ٢٤ من ديسمبر سنة ١٩٥١ .

وطرابلس مدينة جميلة ، مشيدة البناء ، وبها كثير من الآثار التاريخية ، وهى على ساحل البحر المتوسط ، ولها تاريخ مجيد فى الكفاح والبطولة ، فقد شاهدت هذه البقعة المعارك الدامية منذ سنة ١٩١٢ ضد الطليان .

والواقع أن الاستعمار الطليانى فى غاية الاجرام والقسوة ككل استعمار أجنبى غاشم ، سمعنا ممن شاهدوا معاركه ومعاملته قصص الوحشية والقسوة فى أبشع صورها ، ورأينا أماكن المشانق التى كان ينصبها الاستعمار الايطالى فى الأسواق العامة لقتل المجاهدين الأحرار ، ومع كل هذا العنف لم يمكنهم المجاهدون من الاستقرار فى البلاد آمنين حتى اقلعوا ، وزال عهدهم المشئوم فى الحرب العالمية الثانية .

وشاعرنا تهزه هذه الحروب هزا عنيفا ، ولقد حفظت طرابلس الغرب للشاعر ذكره ، فخصصت شارعا كبيرا فى المدينة مسمى باسم (الرصافى) ويذكرونه بالخير الذى هو أهل له ، ومن أبيات الشاعر فى طرابلس :

لك الله ياقتلى (طرابلس) التى ... بها حكم الطليان أسيافهم غدرا
أداموا بها قتل النفوس نكاية ... الى أن أصاروا كل بيت بها قبرا
ولما أحاط المسلمون بجيشهم ... فعاد الفضاء الرحب فى عينه شبرا
تقهقر يبغى فى الديار تحصنا ... ففر بها من خشية الموت واستدرى (١)
لئن أيها القتلى أبريقت دماؤكم ... فما ذهبت عند العدا بعدكم هدرا
سنثأر حتى تسأم الحرب ثأرنا ... ونقتل عن كل امرىء أنفسا عشرا

(١) استدرى : استتر واختبأ .

شاعر العروبة كما رأينا يدعو الى التعاون والاخاء والاتحاد فى ظل رابطة اللسان العربى (جامعة العروبة) والمسلمون والمسيحيون اخوة وأبناء وطن واحد ٠

وهذا لايتنافى مع وجود الرابطة القدسية الاسلامية الجامعة ، التى تشمل المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، وان كان المسلم ممن لم يتحدث بالعربية لظروف سياسية فهو يدين وينتسب للكتاب العربى المبين ، وهذه الجامعة الاسلامية عامل بناء ومصدر قوة للجامعة العربية ٠

ونرى هذا المعنى فى قصيدته ، بين تونس وبغداد ، التى أنشدت فى حفلة التأهيل والترحيب بالزعيم التونسى الأستاذ الكبير (عبد العزيز الثعالبى) عند قدومه بغداد سنة ١٩٢٥ ، ويحيى فيها دعوته للاتحاد وغيرته على العروبة :

أتونس ان فى بغداد قوما
ترف قلوبهم لك بالوداد

ويجمعهم واياك انتساب
الى من خص منطقهم بضاد

ودين أوضحت للناس قبلا
نواصع آيه سبل الرشاد

فنحن على الحقيقة أهل قربى
وان قضت السياسة بالبعاد

وان المسلمين على التآخى
وان أغرى الأجانب بالتعادى

أتونس ان مجدك ذو نماء
الى عليا (نزار) أو (اياد)

لنا بثعالبيك خير ملق
على أشتاتنا حبل اتحاد

يغار على العروبة أن يراها
مهددة المصالح بالفساد

يحييك العراق برافديه
تحية مخلص لك فى الوداد

ومما سقناه فى هذه العجالة ، من مقطوفات من أشعار (الرصافى) فى (العروبة) ، نرى كيف كان يحلق فى سماء العروبة والاسلام ، ويعيش بقلبه وعواطفه وشعره بين ربوعها جمعاء ٠ لا يختص ببلد دون بلد ، فهو سليل العروبة ، وابنها البار ، وهب نفسه للدفاع عن حريتها، والعمل على تحقيق آمالها ورفعتها وبناء مجدها وعزة قوميتها ٠ وقد رأيناه يربط بين أحداث دوحة العروبة وآمالها ، ويدعو الى التكتل وتوحيد الجهود ضد قوى الشر والبغى ، ويحث فى حزم على السير فى طريق الحرية والاستقلال ٠

وليته معنا الآن ، ليشهد انتفاضة الشرق ويقظته ، ويرى أعلام الحرية الخفاقة على مغانى العروبة ، وأيدى العروبة القوية الأمينة الحاملة للواء الوحدة العربية ، ومؤتمر الحكومات الآسيوية الافريقية فى باندونج ومؤتمر الشعوب الاسيوية فى القاهرة ، ومؤتمر الدول الافريقية المستقلة فى أكرا عاصمة غانا ، والدعوة الى الحياد الايجابى ، وقضية السلام العالمى ، والدفاع عن الاستقلال الوطنى المبرأ من النفوذ الاجنبى ، عسكريا وسياسيا واقتصاديا ، والدعوة للقومية العربية ، ورفض الدخول طرفا فى الحرب الباردة العالمية ، فى جانب أحد المعسكرين : الشرقى والغربى ٠

حرية الفكر

طبع الشاعر على حب الحرية ، وانبثقت فى نفسه أضواؤها ، وتدفقت على لسانه أغنياتها الحبيبة ، وأعجب برونقها الأخاذ أيما اعجاب ، فأغلاها المهر ، واستقل كل جهد ونضال يبذل فى سبيل الحصول عليها ٠ كتب لنفسه العهد الصادق لتحريرها ٠ وأشهد الدهر وجعل « الثريى » علامة فوق عنوان هذا العهد المقدس ٠ وامعانا فى الاعزاز والتقدير علق العهد فى أعلى الكوكب المضيء « الشعرى » حرصا عليه ، حتى لا تتناوله يد فتغيره ٠ وتحقيقا لهذه السياسة جعل الحق مقصده الأسمى ، فجهر بكل رأى فى جرأة وشجاعة بغير خوف ولا تردد مقدسا حرية الفكر ، فجاءت معانيه واضحة ، وخلا شعره من الرياء الذى يمليه الجبن ، وأرسله نظما منسابا على السجية ، لا تكلف فيه مضيئا ظاهره كباطنه ٠ ليله كنهاره ، ولقد ضمنه معنى الحقيقة عارية وان كان هذا لم يرض البعض ، فعدوه هجرا وكفرا !

كتبت لنفسى عهد تحريرها شعرا
وأشهدت فيما قد كتبت له الدهرا

ومن بعد اتمامى كتابة عهدها
جعلت الثريا فوق عنوانه طفـرا

وعلقته ٠٠ كى لا تناوله يد
بمنبعث الأنوار من ذروة الشعرى

لذاك جعلت الحق نصب مقاصدى
وصيرت سر الرأى فى أمره جهرا

وجردت شعرى من ثياب ريائه
فلم أكسه الا معانيه الغرا

وأرسلته نظمـا يروق انسجامه
فيحسبه المصغى لانشاده نثرا

فجاء مضيئا ليله كنهاره
وان كان بعض القوم يزعمه كفرا

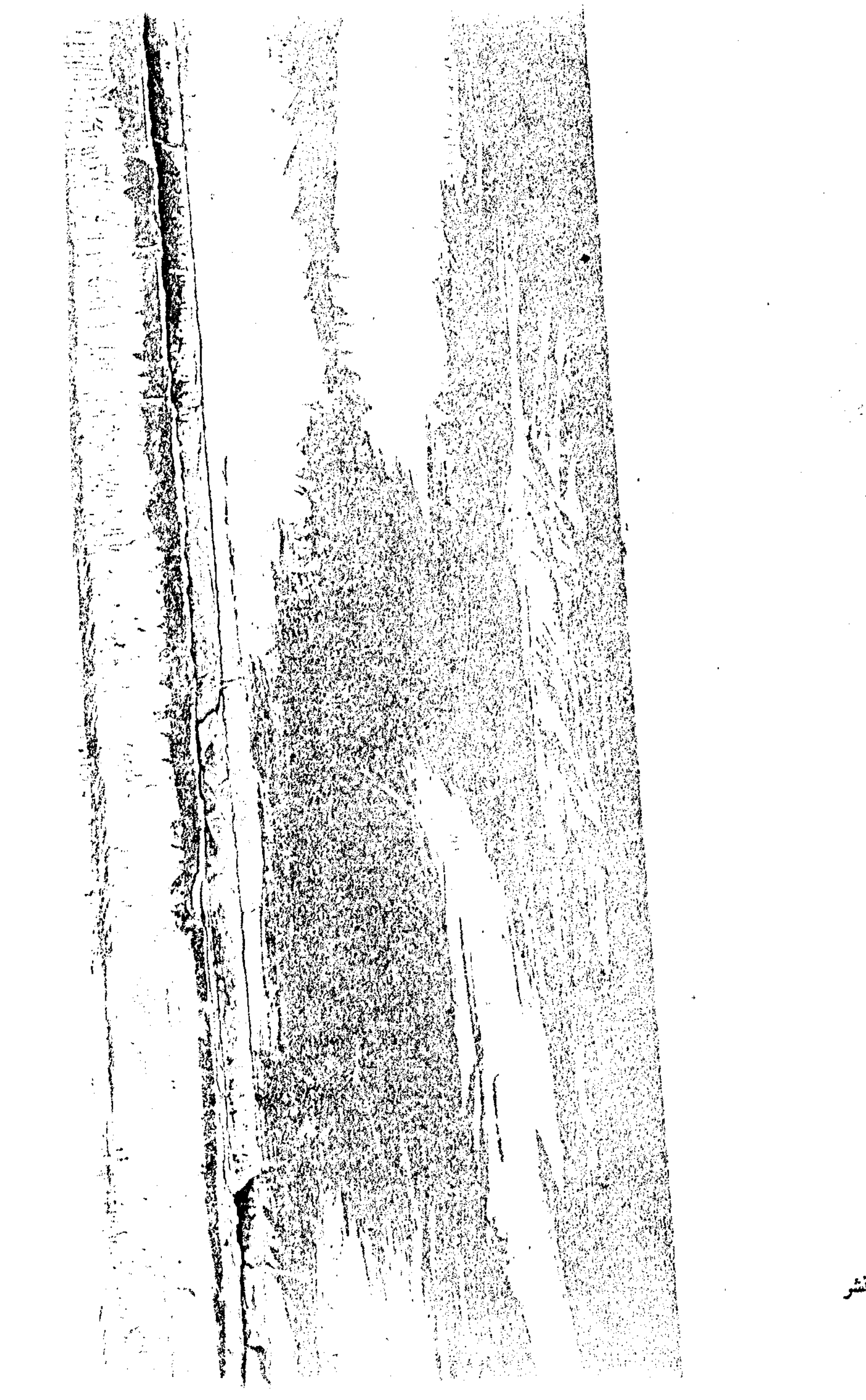
ولكن الكفر كما يراه شاعرنا اخفاء الحقيقة وسترها عن الأنظار ، وقلب الحقائق للتمويه والتضليل • وان حسن الحقيقة يبدو حينما تشرق عارية ، فلا يكون مجال للشك فى انكارها ، يلمسها من عميت عينه ، ويبصرها من فى أذنه وقر ، فيجب على الانسان أن يستقل فى رأيه حتى يكون حرا طليقا ، وهل الأوطان الا حدائق أزهارها اليانعة ، الأفكار الحرة ؟ وما حبها الا لأجل التحرر الذى يدفع الأمة الى الرقى والنهوض فى حلبة المجد والسعادة :

هل الكفر الا أن ترى الحق ظاهرا
فتضرب للأنظار من دونه سترا
وأن تبصر الأشياء بيضا نواصعا
فتظهرها للناس قانية حمرا
اذا كان فى عرى الجسوم قباحة
فأحسن شىء فى الحقيقة أن تعرى
فيلمسها من مارست عينه عمى
ويبصرها من كابدت أذنه وقرا
أحب الفتى أن يستقل بنفسه
فيصبح فى أفكاره مطلقا حرا
وما هذه الأوطان الا حدائق
بها تنبت الأفكار من أهلها زهرا
وما حبها الا لأجل تحرر
يكون الى العلياء بالناس منجرا
اذا كان فى الأوطان للناس غاية
فحرية الأفكار غايتها الكبرى

والاستقلال السياسى مرتبط « نتيجة » للاستقلال الفكرى ، فالسيف لا ترجون من حده ضربة قوية اذا لم يؤازره الرأى الحر القوى ، ومن لم يتمتع بالحرية — ميت ، وقبره وطنه ، والشاعر قد اتخذ الحرية قبلته ، والمؤنس له فى قفره ، والبدر المضىء له فى ليله ، وهى الحبيبة التى يصارع بها الخطوب ، ويجد فى وارف ظلالها بردا وسلاما ، يتقلب بين أحضانها لاثما الصدر والنحر والثغر !

فأوطانكم لن تستقل سياسة
اذا أنتمو لم تستقلوا بها فكرا

اذا السيف لم يعضده رأى محرر
فلا تأملن من حده ضربة بكرا
اذا لم يعش حرا بموطنه الفتى
فسم الفتى ميتا وموطنه قبرا
أحريتي انى اتخذتك قبلة
أوجه وجهى كل يوم لها عشرا
اذا كنت فى قفر تخذتك مؤنسا
وان كنت فى ليل جعلتك لى بدرا
وان نابنى خطب ضممتك لاثما
فقبلت منك الصدر والنحر والثغرا



الثمن ١٢ مص

كاتب العربي للطباعة والنشر
بالقاهرة